al-Huwayyik, Ilyās Tannūs

Riwāyat al-mamlūkah

رواية المملوكة

— رواية واقعية تاريخية غرامية —

بقلم

الياس طنوس الحويّك

طبعت على نفقة الهدى لمنشئه نعوم مكرزل · نيويرك سنة ١٩١٤
Al-Hoda Publishing House, 81 West Street, New York, U. S. A.

المقدمة

رواية المملوكة من الروايات الجميلة المعنى الجليلة المغزى فقد جمعت من العبرة الزاجرة والحكمة البالغة . بما يحببها الى قرائها وسبكت في قالب غرامي تاريخي يستهوي قلوب عشاق الروايات التاريخية الادبية المفيدة

وقد طبعناها على نفقتنا جريا على خطتنا في نشر كل ما نرى فيه فائدة للقراء والمستفيدين غير حافلين بما نتكبده في هذا السبيل من العناء والمال لاننا لم نزاول الصحافة لافادة قرائنا وخدمة الشعب فقط بما نكتبه ونعربه بل لتنشيط اهل الادب وحملة الاقلام بمساعدتهم على بث افكارهم السديدة ومبادئهم القويمة ونشر كل ما نرى فيه فائدة ادبية لهذه الامة التي هي في اشد الاحتياج الى الكتب المفيدة سواء كانت روائية او تاريخية او ادبية ولذلك نقدم هذه الرواية الى كل اديب وادبية مكتفين بان يكون جزاءونا رضى الشعب عن خدمتنا والله حسبنا ونعم الوكيل

نعوم مكرزل

الكرنك

١

في ٢٦ كانون الثاني سنة١٧٩٩ طلعت الشمس ناشرة رداءها الاحمر على صفح النيل • فراق منظرها طليعة الجيش الفرنساوي السائر في مقدمته الجنرال ديزه • واستوقفها ذلك المشهدالعجيب فقال ديزه • ـ لننتظر هنا كتائبنا الباقية فقد القيت الى اليوزباشي بارسفال مقاليد قيادة الخفراء الموكول اليهم امر المحافظة علينا والذود عنا

ولما كان الضابط الشاب المنتدب لهذه المهمة موشكا ان يعمل في شاكلتي جواده المهاز وينطلق برجال فصيلته المتطوعين اوقفه الجنرال باشارة لطيفة وقال له سرا بصوت متهدج تزيده اضطرابا مهابة تلك الساعة وبهاء النهر المتألق • ياعزيزي بارسفال لا تذهب الى منعطف كثيب من الكثبان لئلا يصيبك عيار ناري من بنادق اولئك اللئام فليس لي غنى عنك اذ انه لايوجد هنا سواك من يحسن فهم اللغة العربية والتكلم بها لاجل مراقبة مرشدينا الكذابين • فاقم رجالك في مراكزهم واسرع بالعودة الي

فتبسم الفارس تبسما يدل على عدم الاكتراث وابتعد بجنوده المشعثي الشمل وكانت ثمت جميع اصناف الجنود محتشدة ومعها جياد كوكبة الفرسان المخصصة لخدمة طلائع الجيش من الخيول السورية المطهمة التي غنموها من المماليك فتواروا عن الابصار مغذين في السير وراء كثبان الرمل

وسمع صوت بلهجة التهكم نظير لهجة ضواحي باريس يسأل قائلا • هل

نظرت غضب الاله الشمس حين كشفناللانظار ونحن نخبط خبط عشواء على عدوة النيل • فقال جاويش لم يكن بعد قد نبت عذاره •ان الشمس برزت بحلة قرمزية لانها كانت طالعة من جهةالبحر الاحمر

— اين تجد هذا البحر ؟ •••او ليس له ذكر في التاريخ المقدس؟

— اليك جهته • فانها الى يسارناومنذ اليوم صرنا نعده في تاريخ فرنسا•

وكانت الشمس قد اندفعت بسرعة الى كبد السماء فلما ارتفعت في الفضاء صارت تحرق الرمال وتجفف وحول النهر وتصهر انقاض هيكل متبعثرة حيث كانت تلمع قبة مقام حقيرمهجور وابتدأت كالسراب امام اعين العساكر الفرنساوية المضنكة تعبا • •وكانت جنود اخرى تصل مجهودة بيد انها مملوءة فرحا ونشاطا • فقال احدهم•ان لدينا يوما عصيبا• والحر يهددنا باعادة الكرة علينا عند الظهيرة• وقال اخر • ما لنا ولعلمائنا الافاضل الذين يسلقون في المعرّس حب السحرة واذناب الحيّات كأنها اقراص وسمك

ومرت بعض القذائف صافرة فوق تلك الجماهير المتألبة فهزمت طليعة جنود بارسفال عربانا كانوايطلقون النار عليها وهم مطلقون سوقهم للريح•

ثم ان بارسفال جاء باسير وحشي الهيئة كان جواده قد قتل تحته فاضطر الى التسليم للقائد الفرنساوي بعد ان اخطأه العيار الناري الذي اطلقه عليه وجلس ديزه تحت مظلة عقدوها له من القصب وغصون الاشجار وقال • فلنستنطقه • فحل وثاق الاسير وسيق امام الجنرال ديزه وكان ريموند بارسفال والتراجمة وبعض سكان تلك الناحية يحاولون على غير طائل حل عقدة لسان ذلك الاسير الذي لم يكن للوعد او الوعيد ادنى تأثير به فقد كان يسارق النظر زعماء الفرنساويين ليقف على حركاتهم وسكناتهم كأنه يعالج

الدنو منهم والتهجم عليهم • فقال حاجب ديزه • تحذر ياسيدي الجنرال فان هذا الرجل ينظر اليك بمقلة السفاح الغدار وهو يترصد منك غفلة للانقضاض عليك والايقاع بك باول سلاح يقع تحت يده

ـــ لا يهولنك شيء ياحضرة اليوزباشي فلنتذرع باخر ذريعة نستطيع بها حل عقدة لسانه • واذا اصر على الصمت قطعنا راسه • وان هو اتحفنا ببعض الافادات نصبناه هدفاً للرصاص كجندي وان هو هدانـا الى الصراط المستقيم اطلقنا سراحه وعاملناه بالحسنى •

وعرب بارسفال كلام الجنرال لذلك الاسير المتقدة عيناه غضباً • فتردد هذا الاخير وقال •

لا تسعني هدايـة مثل هوءلاء الكلاب الى الطريق السوي • ولكن اذا وثقت بانهم لا يحزون راسي بحت لهم بما اعلمه

ـــ اذاً نقسم بذلك

ـــ اتقسمون بالكتاب الكريم ؟

ـــ نعم وبالشرف العسكري •• تكلم

ـــ ان مرادا وحسنا بك نازلان في مكان يبعد ساعتين عن هذا المكان وهو وراء الانقاض الكبيرة • ومعهما جنود جمعا شملهم بعد وقعة سديان • ولديهما ثلاثـة الاف بعير تضرب في صدر الصحراء وهما ينتظران قدومكم غدا • فحين تبدون لانظارهما يعمدان الى الفرار بمن معهما • لاعتقادهما كل الاعتقاد بان طالعكم الميمون يقيكم من المكاره والشدائد •

مـا هو اسم القريـة النازل بها المماليك ؟

لا اعرفه ولكن يمكنني ان اقول انه لا يوجد سواها على عدوة الترعـة

وفيها مأذنة يراها الناظر اليها عن بعد· هذا كل ما استطيع ان اقوله لكم

فترجم بارسفال كلام الاخير· وبعد قليل من الحين ساقه الجنود الى ما وراء كثبان الرمل ونصبوه غرضاً لبنادقهم· وعلى اثر ذلك اقبل الحاجب كروازيه يحمل رسائل من القائد العام ويصحبه دينون المصور

وبينا ديزه وراب يفضان رسائل بونابرت احتشد الجنود وتهيأ واللاغارة على مراد وحسن في القرية التي لم يكونوا يبصرونها · وكان على الكثبان الحاجبة الجهة الجنوبية عن اعينهم رقباء بارسفال ودراغون بوفاتيه امير الآلاي يستشرفون اشياء كانت مستغرقة كل افكارهم فسأل بارسفال غوران معاونه قائلا له الى اي شيء يتطلعون ؟ فلو كانوا قد ابصروا جنود مراد لكانوا قد بادروا الى اشعارنا بذلك

— هناك ترى كل العسكونيين المؤلفة منهم طليعة جيشنا وقد خلب عقولهم ذلك المشهد البديع

— ان لدينا امرا مهما لا مندوحة لنا عن اجرائه فسنزحف على شكل مربع متلزز الاضلاع ميممين النيل لننتهي في الصحراء بعد ساعة من الزمان تاركين الكثبان الرملية وراء ظهورنا · وتألف من فرقة بارسفال مربعان الواحد منهما تلو الاخر تتقدمهما رواد يبلغ عددهم مائتي رجل · وكانت المدفعية الخفيفة التي يقودها لاتورنري تسير في الوسط وهي تتهيأ لدق اوتادها في زوايا المربع لتسد مسد دراغون الفصيلة الثامنة عشرة وفرقة ريموند

وكانت الجنود تسير بمشقة في الرمل محيطة باركان الحرب ومتوقعة هجوم المماليك عليها هجوماً هائلا · وكان اولئك المماليك قد برزوا للانظار في مطمأن من الارض بين اكمتين دون ان يبوح بسر وجودهم في ذلك

المكان ادنى حركة او جلبة . ولم يكن الرواد الذين اوشكوا ان يحتجبوا عن الانظار يلمحون بادنى اشارة عن اقترابهم بل لبثوا يرصدون امامهم مشهدا لم يكن معظم الجنود قد ابصروه وهو مما يثير حب الاطلاع من رقدته ويلقي في فؤاد الجبان شجاعة لم يكن لها فيه من مقر وقد صبت نفوسهم الى معرفة ما كان مختبئا وراء تلك الاكام الناتئة امام اعينهم في ذلك السهل الفسيح على ضفة النهر

وبلغ الجنود الى مكان يحيط بالنيل من احدى جهاته وتكتنف الجهة الاخرى الآكام المذكورة فحيوا بهتاف الفرح السهل المنبسط لدى جميع الانظار وكان ثمت انقاض متراكمة وهيا كل متداعية واعمدة تغشيها الكتابات المصرية القديمة واثار مختلفة متبعثرة ومعابد مدنسة وقناطر هائلة ونواويس مفتوحة ويمكن القول بعبارة وجيزة ان المرء يشاهد في ذلك المكان مدينة نشر الموت جناحيه فوقها

ووقف اركان حرب الجيش الفرنساوي امام تلك المناظر المؤثرة فرفع الجنرال ديزه قبعته اجلالا واكراما وصاح بملء فيه . سلام عليك ياطيبة ايتها المدينة العجيبة فقد اكل الدهر عليك وشرب

فتأثر الجنود جميعهم عند سماعهم ذلك الكلام وتمثل لديهم الماضي بكل عظمته . فخفقت قلوبهم وسالت عيونهم وهبت نسيمات البسالة في صدورهم ونسوا كل ما قاسوه من المشقات والشدائد فصفقوا بايديهم وطبقوا الفضاء باصوات التكبير والتهليل

القتـال

٢

وكان اعرابيٌ راكبا جوادايجري به كالريح فصاح قائلا · انظروا الى الفرنساويين · ووقف امام خيمةابرهيمفحملق المملوك بعينيـــه واصغى ليسمع الاصوات البعيدة ثم انه امتطى فرسادون ان يفوه بكلمة واحدة وانطلق به الى تلك الانقاض فتسنم سطح هيكلقديم دفن نصفه تحت التراب وجعل يجيل مقلتيه في ما حوله ثم قال · انـــامبصر كوكبة منالفرسان تشنالاغارة على القرية · فقال له احد العربان · هذا مراد ابن اخيك ومعه رجاله

وكان ذلك الاعرابي مضطربا منجراء روءيتـــه اولئك الفارين قادمين بسرعة البرق الى ابراهيم ·

ولم تمض بضع دقائقحتىاقبلمملوك ارتدى ملابس فاخرة وتقلـــد اسلحة ثمينة تدل على سمو منزلتـــه فيالجيش وقال · ان مرادا مجروح

وكان الرداء الابيض المتشح بهذلكالزعيم الشابملطخا بالدم وجواده مثخناجراحا فامتقعوجهابرهيم وكادتنفسه تطير شعاعا من جراء ما اصاب مرادا بيد ان هذا الاخير ترجل وحدهوقـــال · لا تكتئب ياعم فالمسألـــة بسيطة لقد اصابتني قذيفة كسرتمعصميولكن هذا الامر لا يثبطني عن تولي قيادة الفرسان بذاتي · وانت مقضيٌ عليك بان تضمن سلامة كنوزنا وتقود جنودنا المحافظين الى الصحراء

وبينا هم يضمدون جرح مرادٍكان هذا الاخير مع شدة الالم الذي

يشعر بــه مهتما بامر الكنوز المذكورةوجميع الامتعة فقال لعمه • لما كان الافرنسيون يدورون حول المدينةالبائدةاردت لهيهم فلجأت الى تدابير تنيلني وطري بهجومي عليهم ووضعي كمينايقف لهم بالمرصاد ويشغلهم حينا من الزمانوهب اسعدتهم الاقدار وحالفهمالنصر وجاوءوا قريتنا ظافرين فتكون قد ابتعدت عنهم وامنت شرهم • وانااستطيع المقاومة يومين اخرين فيالموضع المحشودة فيه جنودي والمحصن تحصينامنيعا

ــ ولكن هوءلاء الفرنساويين لديهم مدافع

ــ لا بأس من ذلك فانا ساضمن نجاة رجالنا قبل الانقطاع عن اطلاق النار

ــ ووردة ابنتي •••

ولم يكد يلفظ اسم وردة حتىاشرق محيا تلك الفتاة فقالت بجرأة عظيمة • يا ابي كن ناعم البال منجهتيفان وردة بمأمن مــن نزول النوازل والمام الملماتلانالفرنساويين يحترمونالشيوخ والنساء فلا بد لهم من اقتفاء اثارنا ولو انتهينا الى اقصى الغيوم دونان يعرجوا على هذه المرابع

ــ وانت يا ابني •••

ــ لا اخشى شيئا فان هم عثرواعلي شفعت بي جراحي لديهم دون ان يعلموا شيئا من حقيقــة امري • ولاتحدثهم النفس البتة بان يستصحبوني معهم اسيرا في اثناء مسيرهم وايقادهمسعير الهيجاء مخافة ان يتيسر لي الفرار عند اول فرصة تبدو لي

ــ بناء عليه لا يمكنني ان اكل اليك امر العناية بوردة

فاتقدت عينا مراد وتوسل الى عمه الا ينصب كريمته هدفا لنبال القدر

اتكالا على احترام سلطان الفرنساويين للمنارى ولو كن حاملات الاسلحة لمقاتلته . وآلى على نفسه الا يفترق عنها واذا تزيا بزي فلاح كان اقل تعرضاً من غيره لعقوبة العدو وكانا من السرب تحت سقف ابراهيم وفي كنفه وسمعتا اصوات البنادق عن بعد فكان ذلك دليلاً على اشتباك القتال بين الرواد الفرنساويين والمماليك الكامنين بين الانقاض . فقال مراد الجريح . ان عبدالله يتولى قيادة جنودنا المهاجمين والكامنين وانا ابقى هنا للدفاع عن القرية

ولم يتردد ابراهيم بالمسير بموجب مشورة مراد ابن اخيه لعلمه ان تلك المشورة كان من باب سداد الرأي لانه لو سقطت في ايدي الفرنساويين الثلاثة الاف جمل الموقرة كنوز ابراهيم بك وحسن لحرموا جميع وسائل الدفاع ومحاربة جنود بونابرت ومات في قلوب مريديهم المصلحين الامل بالاثار من الاعداء

وفي بضع دقائق القى ابراهيم على وردة ابنته بعض نصائح لم يلق له مندوحة عن ايداعها اياها وقال بلهجة شديدة والدموع تسيل على خديه . لم يبق في اليد حيلة فان ديزه نفسه يصلينا القتال وهو قد ابقى حتى الان على نسائنا وجرحانا وحين لا يبقى لديه سوى الفلاحين يأمر جنوده بوضع حد للنهب والسلب فانه يهمه قبل كل شيء استمالة قلوب المصريين اولئك الارقاء الاخساء الذين يتوهمهم — وقد ساء وهمه — اعزاء النفوس نظيرنا . ويحسن بك ايضا ان تكتم نسب وردة فان هم توهموها فلاحة بسيطة نجت من مخالب الهلاك واصابت شفقة من الغالبين

ثم ان ابراهيم ودع ابنته وابن اخيه مستخيرا الله وسار بالبعران وجنود

المحافظتيوم الانعطاء المنبسطتوراء الترعوبعد عبورهم هدموا المعابر لئلا يستفيد منها الفرنساويون بمرورهم عليها

وبقي لخدمة وردة ومراد بعض الخدام الامناء فسدوا مدخل القريـة وحصنوا بنوع خاص منزل ابراهيم الفخم الداخل البسيط الظاهر وجلس مراد مع ما كان يساوره من الحمى الشديـدة الوطأة عليه في مكان مرتفع يشرف على الموضع المتجاشئة فيه رجاله لردغارة الغزاة وجعل يصدر اوامره اليهم . وكانت طليعة جنود بارسفال تترامى بالقنابل والقذائف مع العربان المتشتتين بين الانقاض بيد ان معظم الجيش لم يكن بعد قد اصيب بضرر من النيران التي كان يطلقها عليه اولئك الرمـاة الذين لا يروى لهم غليل في الهيجاء .

ولـم يتمكن الجنرال ديزه الا بصعوبة عظيمة من ضبط حـدة العلماء الذين كانوا يصحبونـه والذين هتفوا هتافا عاليا حين وقعت اعينهم على انقاض مدينة طيبة النائمة الصيت . فقال لهدينون ورفاقه . بحياتك يا حضرة القائد دعنا نصور ذلك التمثال المنصوب عند باب الهيكل

ــ غدا حين يتم التنقيب في جميع الانقاض فانا احاذر ان ادعكم هدفا لنيران بعض العربـان الكامنين وراء الاعمدة والصخور

ــ ربما نلقي حتفنا غدا

ــ فحينئذ يمكنكم ان تصوروه في الابدية

ولما وقف الجيش ليأخذ قسطه من الراحة عمد المصورون الى اخـذ الرسوم ووقف الجنود حولهم ليقوهم طائلة الردى . وبينا هم على تلك الحال واذا باحـد الخفراء يصيح . تحذروا فدونكم الاتراك

وللحال اسرع الجنود الى تأليف مربع واوشك القتال ان يشتبك بينهم

وبين المماليك الذين هجموا على نغمات موسيقاهم البربرية والحماسة قائدهم والاقدام مركبهم وهم مدججون باسلحة تنعكس عليها اشعة الشمس الباهرة . وكانت جنود الفصيلة الحادية والستين واقفة في الصف والبنادق الى اكتافها تنتظر الامر باطلاق النار فقال الجنرال ديزه . ارموا النار وحين وصول المماليك كأنهم اعصار هائل كان الفرنساويون يطلقون عليهم القذائف من مدفعين كانا معهم ومن بنادقهم القويسة الطلقات . فجندلوا الصف الاول من اولئك المهاجمين ولكن الصف الثاني هجم يتقدمه عبدالله على رماة الفصيلة الحادية والعشرين فمزقهم تمزيقا واعمل السيوف بباقية رجال اليوزباشي فاليت . وكان عبدالله متوهما انه توغل في مأزق تصعب عليه النجاة منه فثنى عنان جواده وهم بالفرار الا انه رجع باسرع من توهج البرق وانقض بسيفه على رايموند الذي لم يتكن متوقعا منه ذلك الهجوم ولكن احد رماة ساكروست طعن جواد عبدالله فسقط تحت فارسه وهوى عبدالله دون ان يتمكن من اصابة بارسفال باذى وخف لانقاذه عشرون من رجاله فاختطفوه من بين يدي اعدائه وساروا به الى تلك الانقاض حيث تواروا عن الابصار . فالتفت بارسفال الى الرامي الذي خلصه وقال له . شكرا لك على ما اوليتني من الصنيعة فسأكافئك على ذلك باهدائي اياك بندقية فاخرة بمثابة تذكار مني اليك لانقاذك اياي من الموت

— فعلت ما يجب علي فعله ولكن يسوءني ان يكون هذا المملوك قد فر من بين ايدينا سالما

— اني ريثما يتسنى لي اتمام وعدي لك اهبك سرج جواد المملوك واشتري منك بعشرة ذهبات الغدارتين المموهتين بالذهب

—يسرني ياسيدي اليوزباشي ان اقدمها لك

— اقتسم انت ورفاقك هذا الكيس المملوء ذهبا لان كل ما يغنمه الجنود من الاعداء فهو لهم

واقتسم الجرحى فيمـا بينهـم الاسلاب الثمينة التي غادرها المماليك في ساحة القتال وغنم الفلاحون اموالا طائلة لان الفرنساويين لم يكونوا يبالون بالذهب والفضة

وكانت هجمة المماليك الاخيرة المصحوبة باطلاق النيران من البطاريات المحجوبة وراء الانقاض سببا للاضطراب في الجيش فخشعت الجنود القائمة في الوسط لدى القذائف المنصبة عليها لكن صوت ديزه اقال عثارها وانعشها فاندفعت كالسيل الجارف على المماليك تصحبها الميمنة والميسرة فهزمت عبدالله ورجاله ومزقت شملهم كل ممزق وصاح القائد كورو · هلموا بنا الى القرية

وكان الفرنساويون قـد الفوا شكل مثلث فزحفوا على الواحة الحاجبة اشجار النخل المنازل فيها ما عدا مأذنة الجامع الرافعة رأسها تيها وعجبا · وكان جيش ديزه في تلك الشمس المحرقـة وفي الرمال والاخربة قد ملاء الطرق خلفه بجثث الابطال المجاهدين جهاداحسنا لنيـل الغلبـة · فاستولوا على استحكامات ابراهيم وانتشروا في ذلك السهل فقال بارسفال لا نراهم ابدا من الان فصاعدا · وقد تم لنا فتح مصر العليا ولم يبق لدينا سوى انشاء المعاهد للمشترعين واصحاب الادارة

فقال الدكتور ماتورل · · لقد انجزنا اسهل الاعمال حتى الساعة وبقي علينا امر في منتهى الصعوبة وهو استمالة القلوب والفوز بالمستقبل

— اخطأت كبد الصواب · فانا اشعر في قلبي بالميل الى البشر والاشياء

ونحن هنا رسل السلام والحرية ولسوف ترى بعينيك الاشياء التي سنأتيها بزعامة ديزه وكلبر وبونابرت في هذه الاصقاع المنتشر الخراب في جميع جهاتها

فقال القائد وهو آت من خلفهم فلنملك في هذه الارض باسم الجمهورية الفرنساوية على قلوب ساكني هذه الواحة المطلقة من قيود العبودية وهيئ بالاشتراك مع حضرة الدكتور محلا لنزول جنودنا ريثما تنتهي الينا تعليمات من بونابرت

وكانت جميع المساكن مقفلة الابواب ومحصنة تحصينا متينا وقد ساد فيها السكون فطلب بارسفال من السكان ان يستسلموا فنبذوا طلبه ولكن الملازم غوران تمكن بلطفه وتحببه من حملهم على فتح باب الجامع فامن العلماء على ارواحهم وقال بارسفال للشيخ الاكبر ان دينكم شقيق ديننا ونحن نحترمه وندافع عنه من كل من يتعمد اهانته فقل للموءذن ان يصعد كجاري عادته إلى المأذنة ويدعو المسلمين الى الصلاة

فدهش الشيخ من سماعه مثل ذلك الكلام وسكن روعه وبعد قليل من الحين زال رعب الاهلين عند روءيتهم لطف الفرنساويين فكانوا يتبادلون الاحاديث من وراء الابواب التي لم تكن تلبث ان تفتح ما عدا بيتا واحدا ظلت ابوابه ونوافذه مقفلة وهو بيت زعيم من الزعماء كان قد شخص الى الفيوم . فقال احدهم . يجري في ظني ان صاحب هذا البيت قد حداه اليأس الى تدبير مكيدة يقتال بها كل من يقدم على الاطلاع عليه فلنأت بادوات تمكننا من فتح الابواب ودخول البيت عنوة . فقال رايموند . ما لنا ولهذا الامر فالقائد يأبى ان نمضي في التنقيب في كل المساكن ما لم يطلق اصحابها النار علينا . فـاذا نفعل باسرانا فلم يتقرر حتى الان

اطلاق النار بعد المعركة على الفارين اللاجئين الى الكهوف والمغاور وشقوق الارض

— نستطيع حل عقدة لسانهم

— بناء عليه فلننطلق معا الى مأوى اولئك البربر

وكان تحت ظلال اشجار النخل مسكن كبير فيه بعض مرام مربعة الشكل سدت بزجاج مختلف الالوان. فصعد بارسفال الدرج وصعد وراءه بعض رجاله فقرع الباب بقبضة سيفه وطلب الضيافة من سكان ذلك المنزل فبقي نداءوه بغير جواب ولكنه سمع حركة في الداخل فقال للدكتورمانورل . يسمعوننا من الداخل .

— فتحت مرماة صغيرة فوق الرتاج

— ومرماة اخرى الى يسارنا ..

وقال اثنان من رجال بارسفال. تحذر ياحضرة اليوزباشي فمن هذه المرماة برزت بندقية طويلة وصوبت عليك

فحال روبين الرامي بين الضابط والبندقية مبتغيا تحويلها عنه . وقبل ان يتمكن من القبض عليها بيده خرج منها لهيب اعمى باصرتيه تلاه طلق دوى في كل انحاء القرية . فهوى الرامي المسكين الى الحضيض وقد اصابته رصاصة في صدره

رردة

٣

وهجم الفرنساويون على الباب فكسروه بالفوءوس وكعاب بنادقهم ودخل منه ثلاثون جنديا وفي افواههم صياح الانتقام والتهديد بالموت. ولكنهم ما لبثوا ان صمتوا فجأة وارتدوا الى الوراء لان امرأة كانت تسد الطريق في وجوههم وهي وحيدة وليس بيدها ادنى سلاح وكانت هيئتها الجليلة وجمالها الباهر وشجاعتها العظيمة تدل على شرف نصابها وسمو منزلتها . وقد تجلببت بوشاحها الاسود وارسلت النقاب على محياها شأن غيرها من بنات امتها وكانت يدها المبسوطة طويلة سبطة البنان وناعمة البشرة لا تشبه ايدي النساء المصريات. ولها عينان براقتان سوداوان ينبعث منهما شرر الذكاء ووجه مستدير كأنه القمر وبشرة ناصعة البياض

ونقل ماتورل روبين وهو فاقد الحس وكان ما اصاب روبين قد اثر بارسفال تأثيرا شديدا فالتفت الى تلك المرأة وقال لها . أأنت اطلقت النار علينا .

— نعم

وكان صوتها الرخيم الاجش مضطربا من جراء تلك الحال . فصاح احد رجال بارسفال والحنق بالغ منه . فلتقتل .

ولم ترتفع ادنى يد للفتك بها. فقال لها بارسفال . كذبت فلست انتِ القاتلة . ثم انه التفت الى رجاله وقال لهم بالغوا في التفتيش في البيت

فلعلكم تعثرون على قاتل روبين. فهذه المرأة تعترف بانها القاتلة طمعا بتخليص القاتل الحقيقي

ولما هم احد الجنود باجتياز عتبة الباب اشرعت في وجهه مدية وقالت له. حذار من الدخول

فانتزع منها الجندي المدية وقال لها بتهكم مقرون باللطف . هلا سمحت لي ايتها النحلة الصغيرة بانتزاع حتك منك

فانقضت عليه تلك الفتاة انقضاض اللبوءة الفاقدة شبلها فاضطر الى الدفاع عن نفسه دفاعا جديا فامسك قناع الفتاة فتمزق ذلك النسيج الصفيق وبان من تحته وجه الفتاة المصرية وقد علته غيوم الغضب والحياء . وللحال علت اصوات الدهش من الفرنساويين عند روءيتهم ذلك الوجه الصبيح فانهم لم يكونوا قد تعودوا ان يشاهدوا تحت براقع الفلاحات سوى وجوه قبيحة . فلبث رجال رايموند مبهوتين ومتعجبين من ذلك الجمال الفتان الذي بدأ عرضا لانظارهم . وكانت في خالي الحين ابنة ابراهيم محتجبة دائما في حجرتها والناس يعرفونها بالسمع من الاحاديث التي كانت جواريها يروينها عنها . وتذمر الفلاحون المنضمون الى الفاتحين عند معاينتهم جمال تلك الغانية وما صارت اليه من سوء الحال . فكانت تلقي على المغتصبين نظرات التحذر ذاهلة عن ستر وجهها بيديها . فقال لها بعض الشيوخ الذين شككهم ذلك المنظر . افتكري بابيك وادخلي الى منزلك

فترددت في الدخول وكان الجنود قد غشوا البيت فارادت ان تهديهم وتتقدمهم الى المكان المغتصب فامسك احدهم بيدها مريدا ثني عزمها عن الذهاب فالتفتت الى سواه متوسلة اليه بان يأخذ بنصرها فاشاح بوجهه عنها

فحينئذ رجت الفتاة من رايموند ان يمهدلها سبيل الفرار اذ اصبحت بدون مدافع واصبح الخوف ملء اهابها · فخانتها كل قوتهــا وتهيجت جميع اعصابهـا واغرورقت عيناهــا بالدموع وجعلت تلتمس لنفسها من بارسفال عذرا على قتلها الفرنساوي بغير تعمــد · وكان بارسفال ينظر اليها ويسمع كلامها وهو لا يفهم شيئا منه والاضطراب بالغ منه فسألها قائلا ما اسمك

فاجابته · اسمي وردة · فتأثر بارسفال من كلامها كل التأثر وسألها ان تعطيه جوابا ملائما لرغبته بقوله لها · صرحي لي بانك لم تقتلي الجندي · فقالت · انا قتلته انتقاما لمن قتلتموهم من رجالنا ولفرار ابي وعار المماليك

ــ ولكننا لم نفعل بك شيئا وانت تعلمين ولا بد من ان يكونوا قد قالوا لك باننا لا نسوق ادنى اذية الى العذارى المماثلات لك مع ما هن عليه من القسوة والتمرد والعناد

ــ بناء عليه انا استطيع الانطلاق فهل تعفو عني ···

وبدت منها حركة تشبه حركة الاولاد وهزة فرح تحاكي انتفــاض عصفور اطلق سراحه · فقال رايموند بتأسف حقيقي · لا استطيع هذا الامر فيجب عليــك ان تمثلي امام القائــد للاستنطاق وهو لا يقــدم الى هــذا المكان قبل ساعة من الزمان لان جنودنا دخلت قريتكم منذ حين قريب · وجاء بعض رجال بارسفال يقولون له · لقد وجدنــا الرامي الملعون ولقــد اصبت بقولك ان هذه الفتاة لم تعترف امامنا بانها القاتلة الا لتنقذه من غائلة الردى

ــ ان عملها الذي اتته يعتبر ولامراء شريفا فمن هو اذن ذلــك المرء الذي احبت تضحية نفسها لاجله ·

ــ انظر اليه بذاتك فقد جاءوا به

ــ وهل اصيب بجراح

ــ لا ... لا اعلم شيئا من هذه الجهة ....

وجاوءوا بمراد بعد ان اساوءوا معاملته وقد وجدوا ذلك المملوك المنهوك القوى من فرط ما سال منه من الدماء منزويا في المنزل المهجور لانه ابى الفرار رغبة في البقاء في ذلك المكان لاجل المحافظة على وردة . فلم يجاوب اليوزباشي بشيء على الاسئلة التي القاها عليه . وكان يلقي نظرات مضطربة على محيا تلك الفتاة المقنع وقد هبت في صدره رياح الحنق. فهاج هائج رايموند عليه وقال . ان صمت هذا الشاب ووجوده وحده في البيت لا يبقيان لدينا شكا بانه هو قاتل روبين فخذوه وانصبوه هدفا لبنادقكم .

فقالت وردة وقد هاجت عواطف العصيان في فوءادها امام الاسير المبدي تصلفا واحتقارا . الا ترون انــه كان مجروحا وغير قادر على حمل السلاح

فقال الجاويش وقد ساءه عــدم اثبات براءة الفتاة . اجــل ياسيدي اليوزباشي ان كلام هذه الفتاة هو عين الصواب

فقال مراد لابنة عمه . اصمتي فالموت يروقني

ــ ولماذا

ــ لانك حسرت اللثام عن وجهك امام هوءلاء الكلاب اللاعين وقــد جررت بفعلك هذا عارا علينا طرًا

فغار فائر الفتاة المصرية عند سماعها كلام ابن عمها المبني على الظلم واساءة الظن ونظرت الى بارسفال الذي لم يتمكن من فهم ما دار بينها وبين ذلك الشاب من الحديث وحاولت مرة اخرى ان تلصق التهمة بها . فقال لها رايموند بلهجة جافية . ماذا تهمك براءة هــذا الجريح . وفي اعتقادي انه بريء من

تهمة القتل ولما لم نكن نحن قدتعودناان نجهز على الجرحى جريا على عادة ذويك العنيفــة فيمكنك ان تبتهجي بنجاتــه من الردى ولكن لا تعالجي اقناعي باتيانك مثل هذه الجناية الفظيعة فانت الحديثة السن الجميلة الخلق والخلق لا يمالئك قلبك الكريم على الفتــك بضيف يحاذر ان يمسك باذى

فتجلدت وردة كمن يغالب عواطفه وقالت بشدة · اني ابغضكم بغضا ·

وفي ذلك الحين جاء القائد ديزه فتنحى بارسفال جانبا وقال · هوذا القائد فانه يبرز عليك الحكم بنفسه

ولما وقف القائد على حقيقة الامر وفهم من اليوزباشي ما كان قد جرى التفت الى وردة وقال لها · لقد اصدرت الاوامر الى جنودي بالرفق برجال ابيك ابراهيم اينما عثروا عليهم ولا يخفى عليك انا نحن عالمون بحقيقة نسبك ولا نريد بوجه من الوجوه ان ننتقم لانفسنا منك · اتيت اليكم والثقة ملء فوءادي مستصحبا رجالي العزل · وانت تعلمين حسنا انــا اتيناكم بالخلاص والسلام وتحريرنا صيانــة دينكم واعراضكــم ومقتنياتكم وبعد ذلك كله تهبين انت ابنتها الفتاة المجبولــة من طين اللطف والجمال وتأخذين بندقية جريح لتقتلينا بها كما يقتل اللصوص والسفــاحون وقطاع الطرق فاعلمي ياحضرة الانسة ان الفرنساويين لا يقــاتلون النســاء وسيكون عفونــا عنك عقابا لــك · ولسوف ننتقم من اخوانــك وابنــاء عشيرتك للجندي الذي قتلتموه غدرا ولكن سيكون ذلك الانتقام وجها لوجه في ساحــة القتال ··· كوني بامان وطمأنينة في ظل هذا المسكن الذي نحاذر ان نجتاز عتبته لانها تلطخت بدم افرنسي · استصحبي معك هذا الجريح المجهول عندنا اسمه ومقامه واومل انكما تستطيعان كلاكما ان تعرفانا حق المعرفة في المستقبل وان تعتبرانا كرام النفوس

اباة الضيم نظير كما

فكان لكلامــه تأثير عظيــم بالحضور لان شفقة سلطان الفرنساويين قد ملاءت جميع القلوب دهشا مقرونا بالخوف والرهبة

ورجع مراد ووردة الى مسكنهما والخزي مستول عليهما واقفلا البــاب وراءهما ليخبئا عن الابصار ما كان قد ساورهما من الخجل . وكانت عزة نفس ذلك الظافر قد ساقت الاضطراب الى ذينك الشخصين فتراءى لهما ان تصورات جديدة بدأت تنتابهما وفي ابان ذلك الحين سمع صوت ناقوس عند منعطف الشارع فارتد المصريون الى الوراء امام طبل صغير من طبول الفرقة الحادية والستين كانوا يسيرون به امام راهب قبطي . فقال احد الجنود ان هذا الراهب يحمل القربان المقدس زادا اخيرا لرويــن المنكــود الحظ. فانحنوا جميعهم باحترام امام الراهب الحامل القربان المقدس عنــد مروره امامهم

فقال احد الجنود . انــا وضعناه خلف هذا البيت عند اسفل مأذنــة الجامع فقد اراد ان يلفظ نفسه الاخير في الفضاء

— هلم بنا ننطلق لرويته .

وسار اليوزباشي يصحبه غوران ورفاق القتيل الى حيث كان روين ملقى على الحضيض يجود بنفسه وانحنى بارسفال فوقه ففتح روين عينيه اللتين كانت يد الموت تعالج اغماضهما وقال . اليوزباشي ... نجا ... .

وبانت على وجهه علامات فرح مؤلم فقال له بارسفال . نعم ياعزيزي روين لقد نجوت بك يا اخي . ايمكنني ان اساعدك بشيء من الاشياء

— آه ياسيدي اليوزباشي ... عند رجوعكم الى فرنسا ... هناك ...

اذهب الى ذوي قرباي في قريتي ...

ـ اعدك بذلك اذا ساعدني الحظ بالرجوع . فنحن محصورون هنا في البلاد التي فتحناها ... فالانكليز يسدون البحر في وجوهنا ... ولكن هل يقدر لنا ان نشاهد فرنسا مرة اخرى ...

ـ نعم ستشاهدونها ... انا اعلم ذلك ... وانا ارى ...

وكأن نورا نبويا اضاء في عيني المحتضر فجعل يحنى بصوت يشبه صوت الوالد ... وحول رفاقه الجنود انظارهم عنه وجعلوا يبكون . وكان من جملة هذيان روبين ما يأتي .

هناك في جبالنا وفي اودية لاربوست ... ارى المرج يغشيه الثلج ... والهري ... وقطعان الغنم ... اظلمت السماء فوق استوس وهبت ... الريح على الاشجار في غارين ... وقرس البرد ... وحضرت يداي ... وتوفى ابي ... وبقيت والدتي وحدها تبكي منتحبة ....

وكان صوت ناقوس المحتضرين يدنو شيئا فشيئا ... فنهض المائت قليلا بين ذراعي رايموند وقال . اسمعوا ... القطعان فوق ... صوت الجلاجل ... ولكن البرد شديد ... الشتاء ... الموت ...

فقال احد الجنود بصوت كالرعد القاصف . تبا لها من حالة تدمي الفوءاد ... ليس في اليد حيلة ... فياليت القتال يتيسر لنا الان للانتقام لهذا الاخ الحبيب من اعدائنا الملاعين

فقال الراهب . صه يارجل . دع هذا الشاب يموت بسلام ... وشاركني بالصلاة لاجله .

وفي خلال ذلك الحين سمع من اعلى المأذنة صوت الموءذن يدعو الناس

الى اقامة الصلاة فاستاء رفاق رويين من ذلك الامر وقال غوران · هـنا هو المؤذن · وقال غيره · سننتقم منه عن سواه فهاءاننا انزله باطلاقي عليه عيارا ناريا · فقال الراهب · اياك ان تفعل هذا الامر ياهذا · فحينئذ صاح عدة جنود من جهات مختلفة قائلين · فليصمت

فقال الراهب بلطف · ولماذا ·

— لانه يصلي لغير الاله الذي نصلي له

— لا يوجد سوى اله واحد

فسقطت كلمات الراهب كالبلسم المسكن على تلك الانفس الحزينة · وكانت الصلاتان ترتفعان الى العلاء في وقت واحد · والمحتضر في اثناء تلك الساعة يدنو من الابدية وهو يسمع باذنيــه الصلاتين متمازجتين ويتبسم للروءيا التي تجلت له · وكان محياه قد احمر وغير النزع سحنته واضطرمت الحمى فكادت تحرق شفتيه فقال · اسقوني · فاسرع رفاقه لتلبية طلبه الا ان البئر كانت بعيدة والنيل ابعد وربما مات قبل رجوع من يمضي لاستقاء الماء وكان يكرر قوله · اسقوني · فللحال فتحت نافذة في الجدار المجاور لــه وخرجت منها امرأة حاسرة النقــاب تحمل كوزا من الماء العذب فلما شاهد الجنود تلك الفتاة الكئيبة فسحوا لها المجال للمرور وانقبضت صدورهم من النفور والتعجب فان تلك الفتاة كانت وردة بعينها وقد خفت لاجابــة طلب المحتضر وبعبارة اخرى كانت القاتلــة المقبلة لمساعدة قتيلها · فقال احد الجنود أ الى هذا الحد تصل القحة بهذه الفتاة

فقال بارسفال وهو اشد تأثرا من سواه · انها تكفر

— ولكن اذا عرفها ···

— انى يكون ذلك وهو لم ينظرها ابدا في ماضي حياته ٠

ولما انطفأت جذوة العطش في فوءاد روبين فتح عينيه فوقعتا على وجه تلك الفتاة المنحنية بفوقه وعلائم الحزن بادية على جبينها ٠٠٠ وجرت ابتسامة لطيفة على شفتيه وتراءت لـه اشباح مختلفة فخيل اليه انه في منزلـه بين ذراعي والدته فقال ٠ شكرا لك يا اماه

ثم انه حنى رأسه ففاضت روحه بين يدي رايموند الفاصل جسمه بينهما فنظر كـل منهما الى الاخر من وراء دموعه المتناثرة

على ضفة النيل

٩

وكان سكون الليل مخيما على تلك الانقاض والقرية والهلال الضئيل يرسل ضوءه على النيل على ما يحيط به من مضارب الجنود في معرسهم ٠ وحدث ان جنديين من فصيلة بارسفال خرجا في جوف الليل خفية ليستحما في النيل ٠ فلما درى بارسفال بامرهما خاف ان يبيتا فريسة للتماسيح التي يكثر وجودها في تلك الانحاء واستشاط غضبا على الجاويش الذي لم يمنعهما عن الخروج٠ وبينا هو يرغي ويزبد ويبرق ويرعد ويتوعد ذلك الجاويش بانزال العقوبة به واذا باحد الجنود يصيح قائلا ٠ ها قد اقبل علينا رفيقانا اللذان خشينا فقدهما ٠ ووصل ذانك الجنديان الى المعرّس وهما ينشدان انشودة توقظ الحماسة من غفلتها ٠ فانتهرهما بارسفال وقال لهما ٠ ستلقيان غدا في السجن وتمنعان عن القتال اسبوعا كاملا ٠ فاطرقا الى الارض دون ان يفوها بكلمة

واحدة وبعد هنيهة من الزمان قال احدهما . لو لم نذهب لكانت تلك الفتاة قد لقيت حمامها . فسأله رايموند قائلا . واية فتاة تعني بهذا الكلام

— في اثناء رجوعنا من الجزيرة سمعنا على ضفة النهر صراخا وفي اقل من لمح البصر وصلنا الى المكان الذي جاء منه الصراخ ولحسن حظ تلك الفتاة وصلنا في الحين الملائم فكان ثمت تمساح هائل يعالج جذب الفتاة المذكورة اليه وهو عاض باسنانه طرف ثوبها وقدهوت الى الارض وخانتها قواها

— اين هي الان

— هناك في مكان امين وقد اتينا نطلب مددا

— فلنسرع لانقاذها

— لا حاجة لنا بذلك ياسيدي اليوزباشي فالتمساح قد غاص في قعر النيل بعد ان طعنته طعنة نجلاء كانت القاضية

وسار بهما اليوزباشي الى الجهة التي دلاه عليها . وفيما هم سائرون قال لهما . من هي هذه المرأة

— ياليتنا تركنا التمساح يفترسها فكنا على الاقل نظرنا باعيننا روبين منتقما له

فقال رايموند وهو يسرع موسعا خطاه . وهل هي الفتاة المتهمة بقتل روبين . الم تأته بماء ليشرب عند نزعه فلعمري ان مثل هذا العمل لا يدل على لوم في الاصل ولا على خساسة في الاخلاق

وحين انتهوا الى المحل الذي كانت فيه وردة وجدوها ملقاة على الارض مغشيا عليها وهي ملتفة بردائها ووجهها مستتر بقناعها . وكان الناظر اليها يظنها جثة هامدة . فجثا بارسفال امامها وهو يرتجف خوفا عليها وجس

بيده المضطربة قلب الفتاة ليرى هل هي باقية في قيد الحياة ام قضت نحبها فصاح بصوت الفرح قائلاً · انها لا تزال حية فارجعا الى المعرس

اتكل الينا حراسة الامتعة

— لا · فقد نسيت ما قلته لكما قبلا

فضغط كل منهما يد رفيقه ووراء تلك الضغطة مـا وراءهـا من المعاني وسارا واحدهما يقول لـلاخر · لنترك يوزباشينا وحده مع حبيبته فيخلو لهما الجو

— اتنسى مـا بينه وبينهـا من الاختلاف في الجنسية والمذهب

— الم تكن من غير مذهبك تلك الفتاة التي حدثتني غير مرة عما جرى بينك وبينها حين كنا في القاهرة ···

ثم انهما قهقها في الضحك وسارا في طريقهما · فقال احدهما · انا اعرف بادي اليوزباشي وخافيه ولو كنت في موقفه لما ترددت دقيقة واحدة في تغيير مذهبي ·

— ليس في ذلك الامر شيء يؤاخذ عليه

— ان الاله الذي نعبده والاله الذي يعبدونه هو اله واحد

— اصبت بقولك فالراهب ذاته حقق لنا هذا الامر

— والمؤذن ايضا اكده لنا فكلاهما متفق عليه

وكان بارسفال خائفا من طول بقاء وردة مغشيا عليها ولم يكن يجسر ان يرفع نقابها عن وجهها مخافة اغضابها عند افاقتها · فالتفت حوله فرأى كوز الماء فقال في نفسه · لم يبق لدي الآن ارش بضع قطرات من الماء على جبينها لتنتعش · قال هـنا وتناول الكوز ثم كشف النقاب عن محياها وصب عليه

بضع قطرات من الماء فتحركت وفتحت عينيها . ولما ثاب اليها الروع شيئا تذكرت ما اصابها فارتعدت فرائصها ووقت ما شاهدت بارسفال الى جانبها توردت وجنتاها من فرط الحياء عندروءيتها ذاتها معه في محل منفرد عن الناس . فارخت القناع على وجهها وارادت الفرار . ثم قالت له .

لماذا تجرعني كوءوس المهانة

— وكيف اهنتك

— بتدنيسك جبيني بالحافظك

— انك جائرة في حكمك ياوردة فانا ورجالي مددنا اليك سواعد المساعدة وانقذناك من التمساح

— نعم ان ذلك الوحش الهائل .

— اطردي عنك الهلع فانه قد مات

— طارت نفسي شعاعا من روءيته فهويت على الحضيض لا اعي شيئا ولم اعد اعلم ماذا جرى بعد ذلك

وكان الحنق يغلي في صدرها حين علمت انها لم تبق حية ترزق الا بفضل الفرنساويين الذين انقذوها من ذلك التمساح

ثم ان رايموند سألها قائلا

— ماذا كنت تفعلين هنا .

— لا يمكنني الجواب على سوءالك

— فلتكن مشيئتك

— كنت وحدي وكان الخدام قد تركوني ولم يكن لدي قطرة من الماء

ـ اعلم انك سكبت ما كان لديك من الماء لتسقي الجندي المسكين الذي قتلته .

فاضطربت وقالت . وجريحي في حالة تنذر بالخطر وهو عطشان ايضا

ـ ولكن بئر القرية ...

ـ ان جنودكم مخيمون حوله . وفضلا عن ذلك فانا لم اكن اجد لي بدا من المجيء الى النيل

ـ ولماذا

ـ لان النيل المقدس يطهر وقد كانت اعينكم دنست وجهي .. فالله لم يرض بذلك بل نبذني عنه ....

ـ اتريدين ان افوض الى اطبائي امر معالجة جريحك

ـ لا لانه يؤثر الموت الف مرة على الشفاء على ايدي اصحابك

ـ واذا امرته بذلك ... فيلوح لي انك كثيرة الاهتمام به ... فهو ولا مرا ، عزيز جدا لديك .

فالتقت عين الفتاة النجلاء بعين رايموند وقد فهمت من لهجته انه يقاسي الالم من ظنونه فاستاءت وقالت . ان الجريح ابن عمي وهو يدعى مرادا

ـ اخطيبك هو

ـ لا اعلم فكل شيء في هذا الصدد منوط بارادة ابي

وكان كل ما يعتقده الشرقيون في القضاء والقدر منطويا تحت عبارة تلك الفتاة فتأثر بارسفال من كلامها تأثرا اجرى الدمع من مقلتيه وتطلع بغوران الذي لم يكن يفهم ما هو دائر من الحديث بينه وبين وردة لجهله اللغة العربيــة وكان يسوءه وجوده في ذلــك المكان بين ذينــك الشخصين

المتحاورين بلغة لا يفهمها · وكان التاتر قد بلغ من بارسفال ومما زاده تهيجا حرارة تلك الليلة · فلم يعد يقوى على كتمان ما يساوره فؤاده من الغرام والهيام واعترف بحبه الشديد لوردة وعلم سبب اضطرابه عند مسه صدرها وتصوره ما كان محجوبا وراء ذلك الازار وتحت ذلك القناع من المحاسن والجمال· اجل انه كثيرا ما ظفر بالاعداء في ساحة القتال وغنم منهم الاسلاب واصبح لا يبالي بقدوم الموت الذي كان يتوعده كل ساعة بيد انه لم يعد الان يفوق رفاقه بشيء من الاشياء لان العشق تيمه وثبت لديه هذا المساء ان افضلية القوة من خصائص القلوب غير الثابتة وبدا له انه لم تكن نفس بشرية اشد قلقا من نفس ابنة ابراهيم · فهي وحدها مرتكبة جريمة القتل · وهي التي نجت من طائلة العقاب انتقاما ومن غائلة الموت عرضا نشبت في احبولة نصبتها لها شبلتها واهواءها ولذلك عقد عروة عزمه على استعبادها · فكل افكاره البشرية وكل احلامه الفلسفية هبت هبوب النار من سنة الكرى اجابة لنداء رغائبه الحارة فتجرأ على اعطاء غوران امرا مموها كان يحمر وجهه خجلا من اعطائه اياه قبل تلك الدقيقة بساعة من الزمان ·

فقال لمعاونه · ياغوران ان هذه البنية تدلني على فرض يقضي علي اتمامه ولذا فانا اكل اليك امر قضائه في ابان رجوعي معها الى القرية حين تثوب اليها قواها الفارة منها · اسرع الى ماتورل وايقظه واذهب به الى الجريح الذي اساء رجالنا معاملتــه ظلما فهو يقاسي الاما مبرحة · اسقوه وضمدوا جراحه وبعد مدة قصيرة اوافيكم

فلبى غوران الامر وسار مستاء من الحجة التي لجأ اليها رئيسه لابعاده · ولم يكد يبتعد عنه حتى ناداه قائلا · لا تقولوا لمراد ان اخته كادت تغرق في

النهر بل قولوا له انها جاءت الينا تطلب مساعدتنا

ومضى غوران متواريا وراء ستار الظلام وعادت وردة تنظر بدهش الى بارسفال . فسكن روعها بقوله لها . سيعود الينا بعد هنيهة من الزمان وحين تأخذين قسطك من الراحة ننطلق من هذا المكان

— ومراد الذي ينتظرني ...

— ناخذك اليه

— ارجو منك ان لا تأخذني انت اليه

— ولماذا لا آخذك انا اليه

— لانه يبغضك اكثر من سواك

— وما هو سبب بغضه الشديد لي

— يظن ... وقد ابصر ... وهو يعلم ... قالت وردة بصوت متهدج وقد توردت وجنتاها . فقبض بارسفال بيديه على يدي الفتاة التي عالجت الافلات منه دون ان تبدي مقاومة جدية وقال لها . وماذا يعلم .

وليث ينتظر جواب الفتاة وصدره يخفق خفوقا . فترددت في بدء الامر في الكلام وارادت الصمت او الكذب الا ان عيني الضابط كانتا تتقدان نارا اضطرتاها الى الكلام فقالت . هو يعلم انك تظنني حسناء ولذلك فهو خائف ...

— نعم انت حسناء ياوردة وانا احبك

فذعرت الفتاة من شدة بيج الضابط وقالت له . هلم بنا نغادر هذا المكان

— لم يحن بعد وقت مغادرتنا له ... ما بالك مذعورة ... انا لا اريد بك سوءا فقد انقذتك من جنودنا الذين كانوا يريدون الانتقام منك ولیس

لي بغية في هذه الدنيا الا ان تحبيني

فاجفلت الفتاة المصرية عند سماعها كلمات رايموند الاخيرة وقالت بحدة

• هذا الامر لا يمكن حدوثه

فقال لها بارسفال بلهجة تقرب من لهجة التهديد • ذري هذا الكلام جانبا فقد غنمتك ولا افلتك من قبضة يدي ابدا

انت مخطئ في وهمك فلا يثنيني شيء عن البطش بك

— انت•

—نعم انا ••• وان انت عالجت اغتصابي فلا اخطئك هذه المرة

— وهل اخطأتني قبلا •••اجل ان روبين المسكين حال بيني وبين بندقيتك وهل كنت تتعمدين الايقاع بي

فقالت الفتاة بصوت منخفض• نعم

—وما هو السبب

— لاني رأيتك من وراء النافذة تأمر رجالك • فقلت في نفسي هذا هو الزعيم ••• ولما هجم جنودك على مسكني شعرت باني سقطت في ايديهم واني صرت رقيقة لك ••• فحينئذ تحركت في فوءادي عاطفة القلى لك واردت هلاكك

وكانت تتكلم بصوت متهدج لان كل انفة جنسها وغابر مجده وبغضه للفاتحين تجسمت في مقالها • فجعل رايموند يتساءل مذعورا عما اذا كانت صادقة في كلامها بيد تلك الفتاة لما شاهدت الكآبة منتشرة على محيا ذلك الشاب حنت رأسها وقالت •عفوا

— يابنية لا تعرفين قراءة ما هو مكتوب في فوءادك ••• لقد قدمت

في ساعة عينتهـا الاقدار وبناء عليـه فيجب عليك ان تحبيني على رغـم منك ......

ـــ اني لا استطيع ان احب عيسويا

ـــ ما لك وللعيسوي احبي انسانا ٠٠ اصغي لي ياوردة فتفهمي مـا سالقيه عليك من الكلام

وافاض في الكلام عن حقيقة حبه لها بعبارات شعرية كان قد تعلمها من تصفحه دواوين بعض الشعراء ونم باسرار فوءاده لها

ولما اعمل الروية في حالة تلك الفتاة زال ما كان قد هاج في خاطره من التصميم على اخضاعها لرغائبه عنوة فان طهارة وردة دمثت اخلاقه فعاد الى حالته الاولى من التأمل والتفكير

فدهشت الفتاة المصرية من تغير لهجته معها دون ان تدرك شيئا مما كان يدبره لاجلها وجعلت تنظر اليه بمقلة الحب ومع ذلك بقيت فيها بقية من ذلك الذعر ٠ ولم تدر سبب صيرورة ذلك الفتى اطوع لها من بنانها فانهـا اصبحت سيدة له ٠ فقال لها رايموند انا اسعى لنيل قيادة الجنود النازلين في هذه البقعة ليتسنى لي البقاء دائما على مقربة منك

ـــ غدا ننطلق الى مصر السفلى لاجئين الى نسيب من انسباء والدي اعد لنا مأوى في القاهرة

ـــ عديني ياوردة انك ترضين بان امضي لموافاتك حيث تكونين

ـــ ايمكنني ان اعلم شيئـا مما ساصير اليه ٠٠٠ أأستطيع الخروج ٠٠

ـــ ما هو اسم هذا النسيب ٠٠٠

ـــ اسمه منصور وهو حـاجب ابراهيم بك شيخ البلد

وكانت قد باحت له بذلك السربغير تردد . فهل كانت تبتغي لقيا بارسفال في وقت قريب ... وكان بارسفال مؤملا هذا الامر ولكنه ماعتم إن اكتأب عند مرور غيمة شك في جنانه فان هذا الظافر الذي كان في ماضي الحين متعجرفا اصبح بمجاورته لتلك الفتاة وقربه منها وديعا كالحمل. فقال لها . اسمعي ياوردة . لا ادري هل تنطقين بالحقيقة ام لا ولكن ان انت خدعتيني بحثت في مصر كلها عنك لكي اجدك ... انا لا استطيع الحياة بدونك . لقد اخذتك بعيني منذ بضع ساعات ولكن حياتي الحقيقية لا تبتدىء الا من ذلك الحين المفجع والسار في وقت واحد . اكشفي القناع عن وجهك مرة اخرى ودعيني اعبدك نظير الاهة جديدة في مذهبي

—لا ... لا ينبغي لي ان افعل هذا الامر مرة اخرى ... لئلا اصير مرذولة ما دمت في قيد الحياة

— ساعلمك احتقار الخزعبلات التي لا تليق بجمالك الفتان وبنفسك الصغيرة الطاهرة

— لا افهم معنى كلامك واخاف من شدة تهيجك

— لست متهيجا ياوردة ... فحدة كلامي تدل على دهشي من جمالك الباهر فلا تخافي شيئا في كنفي

— الا يعود ضابطك ...

— ساصحبك بذاتي الى بيتك .

— بعيشك لا تفعل هذا الامر فان مرادا يقتلك

— لا بد ان يكون لمراد هذا بعض حقوق عليك تجعلك تخافينه الى هذه الدرجة

— ان ابي وكل اليه العناية بي

فقال بارسفال بحدة وهو يحرق الارم . فليحذر . وان هو توعدك القيته في السجن ليقضي فيه بقية ايامه

ولم يكد يفوه بهذا الكلام حتى ندم عليه لانه لم يكن جديرا بما ابداه من كرم الاخلاق ثم قال . سأسهر عليك بمقلة اليقظان

— وكيف يتسنى لك ذلك . فربما عاد والدي هذه الليلة شانا الغارة عليكم فيمزق شملكم ويذبح منكم خلقا كثيرا

فاضطرب في نفسه عند سماعه كلامها وقال . اتنذرني هذه الفتاة بسوء يتهددني ... وحينئذ شعر بثقل عبء المسؤولية الملقى على عاتقه بوجوب صيانة رجاله من غوائل الردى وعادت اليه روح الجندية دون ان تفارقه روح الحب اللطيفة . فقال بجهد . هلم بنا نرجع وعند وصولنا الى المعرس النازلة فيه رجالنا اسلمك الى بعض الخفراء ليوصلوك الى منزلك

— اتعدني بانك لا تسعى للحاق بي ....

فقال بلهجة التهكم . مخافة ان يستاء مني السيد مراد

فقالت وردة بلطف غير كاتمة مخاوفها . مخافة ان يقتلك

فسألها قائلا وفي قلبه امال مبهمة . اتحبينني .

فاجابته الفتاة بكلام يشف عما تبطنه من العواطف نحوه . لا اريد ان تموت

ثم انهما سارا على مهل وهما مكتئبان وصامتان . وكان رايموند كثير التفكير في واجباته وفي المستقبل الذي لم يكن يجسر ان يمد بنظره اليه . فكان

تارة يقاسي الآلام من فرحـه وتارة يشعر بانه سعيد من جراء احزانه ولذلك كان اختلاط عواطفه تملأ فؤاده جرأة واقداما · وكان بنوع ما قد عرف مـا كان مهيئا له في المستقبل · فقال في نفسه · ان الفتح قد انتهى الان وصار لي الحق بان افتكر بوردة واعتبر انها علي حقوقا مقدسة وضم اليه الفتاة المرتعدة ورفع بلطف نقابها القاتم عن محياها فالتقت شفتاها وختمت بقبلات طاهرة

وقال الشاب وهو ثمل بخمرة الحب · اقسم بانك لي دائما مهما حالت بيننا الموانع ·

فصمتت وهي مغرقة الفكر في ما جرى لها

وسمع عن بعد صوت الصور يؤذن برقاد الجنود

امـام يافا

٥

وقف الجنرال بونابرت في مضربه ورفع طرف السجف قائلا · لقد طلع الفجر فكمل يابوريان المكتوب لنسيره هذا المساء مع تقريري عن هجومنا على يافا واستيلائنا عليها

فقال الكاتب مدهوشا · استيلاءونا عليها ·

—نعم فبعـد ساعة من الزمان اصدر الامر بالهجوم فجأة وعند الظهر نستولي على المدينة

قال بونابرت هذا الكلام وجعل ينتظر من بوريان اشارة تدل على ارتيابه

في مقاله الا ان ذلك الشاب استأنف كتابة ما كان بونابرت يمليه عليه . فسأله هذا الاخير قائلا . اتشك انت في صحة ما قلته لك

— لا. لانك عودتنا كل العجائب

فسر بونابرت من ذلك الجواب وافتر ثغره متبسما ودنا من كاتبه وجذب اذنه قليلا قائلا له . الى اين وصلنا في المكتوب .

— انك وصلت الى الموضع الذي تبين فيه لحضرة قرينتك الاسباب الواجب بسطها لدى الدير كتوار عن حملتك في سوريا

— اقرأ لي العبارة الاخيرة

— « بعد معركة سديمان والثورة في القاهرة جرت مفاوضات جديدة مع مراد بك وابراهيم بك فصمما على الخضوع للافرنسيين والمحاربة معهم كتفا الى كتف . ولكن انتهى اليهما خبر ماله ان الباب جرد جيشين فتوقفا الان ريثما ينتظران نتيجة ذلك التجريد»

فعاد بونابرت الى المشي في المضرب ذهابا وايابا وهو كثير التفكير وقال . فلنكمل يابوريان ولنسرع ثم قال .. «ان الافكار في القطر المصري قلقت خوفا من هذه الغزوة ولم يبق في اليد حيلة . وهب انضمت فصيلة انكليزية الى جيش رودس فان هذه الغزوة تجر الينا معا مخاطر جمة ولذلك صممت على المبادئة بالهجوم واجتياز الصحراء والبطش بجيش سوريا كلما اجتمعت الفرق المختلفة وعزمت على الاستيلاء على مستودعات ذخائره ومواقع العريش وغزة ويافا وعلى تجنيد المسيحيين في سوريا واثارة الدروز والموارنة وبعد ذلك على المسير بموجب مقتضيات الاحوال ...»

وحبس لسانه عن الكلام حين دخل عليه احد الضباط فقال له بلطف.

ماذا تريد ياسارجي وماذا جرى

— ان الجنرال لان الذي استدعيتهقبل تبلج الضحى يسأ لك هل يستطيع القدوم اليك

يمكنه ان يدخل علي بعد خمس دقائق حين اكون قد فرغت من هذا الكتاب لجوزفين . فلنستأ نف الكتابة يابوريان

« اوءمل انه حين يذيع نبأ سقوط عكا في حوزتنا يبادر المماليك من عربان مصر وحزب اسرة ظاهر الى الانضمام الي . فـلا يأ تي شهر حزيران حتى اكون فتحت الشام وحلب وحتى تكون طلائع جيشنا قد توقلت جبال طوروس ويكون لدي ٢٦ الف فرنساوي و ٦الاف مملوك وعربي من عربان مصر الفرسان و ١٨ الف درزي وماروني وجنود اخرى من سوريا ويكون ديزه في مصر مستطيعا مساعدتي بعشرين الف مقاتل منهم عشرة الاف فرنساوي وعشرة الاف زنجي . فعند ذلك يضطر الباب الى عقد الصلح معي ولا يعود يقيم النكير على زحفي على الهند . واذا اسعدني الحظ تمكنت من بلوغ نهر السند في شهر اذار سنة ١٨٠٠ باربعين الف محارب غير ملتفت الى ما نزل بنا من الخسارة مـن جراء فقـدان الاسطول وقد سبقت لي مفاوضات في بلاد فارس وانا واثق بـان الشاه لايتصدى لمرور جيشنـا بطريق البصرة وشيراز والمقران . وانا موقن منذ الان ولو عاكست الحوادث امالنا ان حرب سوريا تنيلنا قسما من رغائبنا . اعني انه ينجم عنهـا ابادة الجيوش التركية وتثبت قدمنا في القطر المصري »

ثم ان بونابرت تناول من بوريان القرطاس الذي كتب عليـه المكتوب وقرأه بسرعة وجلس هو نفسه في مكان كاتبـه ليكمـل بذاتـه المكتوب

لجوزفين ... ودخل عليه لان وهويختم المكتوب فمد اليه بونابرت يديه وسأله قائلا . وماذا فعلتم بتلك الثلمة

— نأمل المرور بها عند الساعــةالثالثة

— الا يمكنكم المرور بها قبل تلكالساعة

— ان العدو يصلينا نارا حامية ولااشاء ان اضحي على غير طائل فريقا من جنودنا

وكان اطلاق دوي القنابل يغطي اصوات الحركة الجاريــة في المعسكر وبونابرت يصغي الى ازديــاد حركةالقتال . فحلت عنده ملاحظة لانمحل القبول وقال . حسنا قلت فنحن على كلحال سنقضي الليلة القادمة فيالمدينة بعد ان نجعلها عبرة ظاهرة . واعلم انهقد انتهى الي هذه الليلة ان الالبانيين المنتظمين في سلك حاميةالعريش التياستسلمت قد نقضوا عهدهم بعدم العودة الى حمل السلاح لمقاتلة الفرنساويين فيالحرب الحاضرة ودخلوا يافا ساخرين منا .فيجب عليك ان تعلم يالان انهلا ينبغي ان يستبقى واحد من هوءلاء الخونة

— اني وما تريد ياقائدي ومولاي

—يمكنك ان تهجم بجنودكحين تبتدىء حرارة النهار بالهبوط...فاذا تبتغي مني ياسرجي.

— ان رسولا من قبل القائد ديزهاقبل حاملا رسائل من مصر العليا ومن سعاة القاهرة

فصرف بونابرت لان باشــارةلطيفة وقال . فليدخل

ورفع سجف الخيمة وكان يحيطبها معسكر الفرنساويين فدخل فارس

علاه الغبار وبانت عليه علائم التعب فاضطربت افكار بونابرت عند روءيته سحنته المتغيرة وصاح به قائلا . أ انت آت الي باخبار تسوءني معرفتها باحضرة اليوزباشي

— لا يامولاي فكل شيء على غاية ما يرام في مصر

— بناء عليه لماذا تدخل علي بهذا الوجه المتغير

فاحمر وجه الفارس عند سماعه كلام القائد واطرق برأسه معتذرا عن تلك الهيئة بوعثاء السفر ولكن بونابرت لم يعد يسمع كلام الاعتذار الذي كان يفوه به لانشغاله بفض رسائل ديزه فسأله بونابرت قائلا . ما اسمك .

— بارسفال

فالتفت سارجي والدهش بالغ منه وضغط يد رايموند قائلا له بلهفة . ان هيئتك تغيرت كثيرا ولذلك لم اعرفك . فهل جرحت وهل انت مريض

— نعم

ثم ان بونابرت قطع حديثهما بقوله لبارسفال . ان رئيسك يثني عليك ثناء حسنا ولذلك فانا احب ان ابقيك في خدمة اركان الحرب عندي مطلقا لك الحرية المطلقة بالذهاب والاياب والتعرف بفرساننا بحسب هواك . انت تتكلم التركية والعربية وبناء عليه فانت تستطيع ان تقدم لنا خدمات مهمة

— ساستنفد المجهود للنهوض بهذا العبء ياسيدي القائد

— واؤمل انك لا تقذف بنفسك الى وهدة العطب

قال القائد هذه العبارة حين قرأ في رسالة ديزه عبارة عن رايموند وجعل يلاحظه لعله يرى على جبينه تأثير التوصية به

فقال رايموند بمرارة وتبسم خفيف ليس لي الحق بذلك

— حسنا قلت ياصاح فاذهب واسترح وسيعتني بك سارجي . ولست بمحتاج اليك قبل الغد

وعند خروج بارسفال من الخيمة طلب الى حاجب بونابرت ان يخليه وشأنه

فقال له الحاجب ضاحكا . وماذا تريد ان تجري

— ان ماتورل هنا فاحب ان اشاهده

— اتريد ماتورل البكباشي الذراع اليمنى لديجينت رئيس الاطباء ... فهو على مسافة ربع فرسخ من هذا المكان على طريق الرملة في المستشفى النقال

ودنا من سارجي جندي فامره قائلا . اسرج لليوزباشي افضل جيادي الثلاثة وسر معه الى حيث يقيم الطبيب ديجينت

فقال الجندي مدمدما . ان غبار الموت على وجه هذا الضابط المسكين وقد فهمت الان سبب ذهابه الى الطبيب

ولما وصلا الى شعبة طريق الرملة اندفع بارسفال مسرعا نحو البكباشي الذي كان قد اوشك من تضميد جرح جندي ملقى على الارض فصاح بفرح شديد . ياماتورل ...

فالتفت الطبيب وراءه و شد ما كان دهشه عظيما حين ابصر بارسفال فقال . ياريموند . وتعانق ذانك الشخصان . فقال ماتورل ودهشه يزداد . ومتى اتيت الى هذا المكان فامس كتبت اليك الى القاهرة

— اوءمل ان لا اكون قد ازعجتك

ــلا . لاني انتظر هنا الجرحى الذين يؤتى بهم من ساحة الهيجاء ويبين لي ان عددهم قليل الان

ــ بناء عليه يمكننا ان نتجاذب اطراف الاحاديث... وستقول لي..

ــ لا اقول لك شيئا فقد اضنكك السير وارى من واجباتي ان اعتني بصحتك قبل ان اسمع حديثك . تعال معي الى خيمتي وتناول معي الطعام وحينئذ اقول لك كل ما كتبته اليك امس

وكان ماتورل يخدم على المائدة صديقه وهو يلاحظ ما كانت قد صارت اليه حالته في اثناء شهرين قضاهما في الكآبة والقنوط فكان ضعف رايموند وتعبه يرسمان على جبينه اثارا لم يكن الظمأ الشديد والجوع العظيم والعذابات المبرحة التي نالت الجيش الفرنساوي في الصحراء لتستطيع ان ترسمها على محياه . وكان حزن شديد قد تولاه ونال من اجلاده وجعل عينيه غائرتين في وجهه . فطفق الطبيب يقول . انك بعد اغارتك على القبائل المعادية انتهى اليك وانت في طيبة الكتاب الذي امضيته اليك من القاهرة ولذلك فلا اعود الى ذكر ما اودعته فيه من الانباء فوران الذي انفذته الي في الليل لم يجدني في المعسكر بين الانقاض اذ كنت قد سرت مع الجرحى الى الجهة الشمالية بموجب اوامر القائد . وعند وصولي الى القاهرة تلقيت مع البريد التالي الكتاب الذي ارسلته الي ياعزيزي رايموند

ــ نعم ... وبعد قتال دام يومين تمزق شمل تلك القبائل فعدنا الى القرية ولم نجد سوى انقاض حولها النار رمادا وكان مراد الذي ينبغي لي ان احرم حبل حياته قد فر بوردة الى مصر السفلى

ــ لو كنا عارفين منزلته عند ابراهيم لكنا على الاقل ابقيناه اسيرا

بمثابة رهن ... وان الكتاب الذي انفذته اليك امس ينبئك عن الابحاث التي اجريتها فانت كنت تظن ان وردة قد جيء بها الى القاهرة وانها محجور عليها عند نسيبها منصور . فاستعنت برجال حكومتنا واخفينا في التنقيب عنها في كل ناحية واليك ما تمكنت من معرفته ....

وكان رايموند يرنو بعينيه الى ماتورل والحمى تتآكل اوصاله وهو يكاد يهوي الى الحضيض الا ان ماتورل شاء تسكين اضطراب باله فقال . قبل كل شيء يجب ان تعلم ان اسباب الامل لم تتصرم بعد وعندي ان وجودك هنا افضل الوسائل لادراك متوخانا

— ووردة

— لم نقف لها على اثر في القاهرة وقد برح المملوك منصور هذه المدينة منذ ثمانية ايام سائرا بامتعته الى عكاء لموافاة ابراهيم . وعليه فيترجح ان يكون مراد قد ذهب بابنة عمه الى سوريا بعد ان اضرم النار في منزله رغبة في تضليلك عن الاهتداء الى مقره

فابرقت اسارير وجه بارسفال . فحينئذ قال له ماتورل . اراك تحب هذه الفتاة حبا ما وراءه من مزيد

— احبها حتى الموت

— الان فهمت رغبتك في المجيء الى هذا المكان بالمهمة الموكولة اليك.

— بحث لديزه بكل شيء فشفق على وشق عليه كثيرا يأسي ولذلك سيرني الى القاهرة حاملا رسائله وكنت انت برحتها منذ مدة قصيرة .. فتمكنت من الاستقصاء في البحث عن منصور وعلمت انه في سوريا ولم تخامر فؤادي ادنى ريبة في ان وردة عند ابراهيم . وكنت اظن انها وصلت

في الحين الملائم الى مصر البغلى لتنطلق منها مع منصور الذي اصبح الان زعيم الاسرة ·

— وماذا جرى لابيها

— قتله خفير افرنسي غد اليوم الذي غادرتنا فيه حين كان يعالج دخول القرية · وقد قيل ان مرادا لما عرف جثته عند حاجز القناة صمم على اضرام النار في المنزل والفرار بوردة · ولم يكن في ذلك الحين في المعسكر ولذلك لم يتصد احد لانطلاقهما وفضلا عن ذلك فان هذا الانطلاق قد خفف الحمل الذي كان رجالنا يشعرون بانه يثقل ضمائرهم منذ مقتل روبين والعفو عن القاتلة

— احقيق ان وردة قتلت

— كنت انا مستهدفا لنبال الهلاك فقذف روبين نفسه بيني وبين القاتل·

واراد ماتورل ان يمحو من مخيلة رايموند صورة تلك الفتاة وينسيه ذكرها فقال له ·

—لا القي لدي ادنى عذر ينصلها من تبعة تلك الجريمة

— ليتك تدري حقيقة عواطفها

قال هذا الكلام وحبس لسانه مبقيا سره ملقى في زاوية ضميره واغمض عينيه متبسما لرؤيا شبح حبيبته الذي لم يكن يني عن انتياب مخيلته· ان وردة لم تكن تتعمد قتله الا لانها كانت تنظر فيه سيدا لها او بالاحرى عاشقا · وكان بحركاته هذه ينم عن المحبة الشديدة التي كان يحب بها تلك الفتاة المتوارية ·ثم انه قال · كنت مؤملا ان اشاهدها هنا وكان ضميري يناجيني بهذا الامر · وحين وصلت الى القاهرة ورأيت ان املي بوجدانها قد

خاب شعرت بان الارض تمور حولي وكاد عقلي يفارقني فاردت الانتحار . ولكنني عدت فافتكرت بوطني واثرت الموت كجندي في سبيل خدمته وبعد ان احفيت في التنقيب والفيت الادلة التي تجعلني اهتدي الى المقر الذي وضع فيه مراد اسيرته خطر في بالي ان اوءم القائد مينو فذهبت اليه وبحت لديه بكل ما يكنه ضميري . . . ففهم كل ما كان يجول في خاطري لانه كان قد اقترن بفتاة مصرية اقل جمالا من وردة ولكنها كانت تماثلها في كرم الاخلاق وجودة القلب . . . فاعطاني كل الرسائل المنفذة الى القائد الاكبر واوعز الي بحملها اليه . . . فجعلت اعدو بسرعة الريح وقد هلك تحتي اربعة من الجياد وصحبني خفراء تركتهم ورائي في الصحراء التي يكثر فيها وجود اللصوص وقطاع الطرق واجتزت المطرية وجنجقوبلبيس والقريم والصالحية ولم اضيع من الوقت الا الفترة التي اتمكن بها من تغيير الجياد في القنطرة والقطيع وبئر العبد والميودية والعريش وخان يونس وغزة . ومن عازوته الى هنا ركبت بعيرا وهاءانذا اوافيكم امام اسوار يافا بعد ان اجتزت في خمسة ايام صحاري لم يتمكن الجيش من اجتيازها الا في ملء اسبوعين . . . اجل اني لم ارقد ولا اذكر ابدا اني عطشت او اني شربت

وبينا هو يحدث ماتورل بالحديث الانف الذكر جاء بعض الجنود يحملون الجرحى الى ماتورل لمعالجتهم وكانت اصوات المدافع والبنادق قد انقطعت فقال ضابط اولئك الجنود . يوجد هدنة الان فان بونابرت اضطر المدينة بواسطة سفير تركي بوجوب التسليم . فاذا لم يرقهم اقتراح بونابرت عاد رجالنا بعد ساعة من الزمان الى استئناف القتال

وكان ماتورل يعالج الجرحى ويضمد جراحهم فقال لبارسفال . يجب

عليك ان تنام عدة ساعات وساوقظك لكي تشهد الهجوم

وجرع ماتورل رايموند شرابا مقويا فحينئذ نام هذا الاخير نوما عميقا وهو يلفظ بين شفتيه اسم وردة

زورق مراد

٦

ولما انتهى بلاغ بونابرت الاخير الى الباشا حاكم يافا دعا اليه هذا الاخير مجلسه الحربي وقال . اني جمعتكم لاقرأ عليكم هذا البلاغ الاخير وبعد اعمال الروية تبدون لي رأيكم في ما يجب علي اجراءه

قال هذا الكلام وجعل يقرأ عليهم بتهكم باد في لهجته مكتوب بونابرت وهذا تعريبه .—

من رئيس اركان حرب الجيش الفرنساوي العام الى قومندان موقع يافا عن مركز المعسكر العام امام اسوار يافا في ١٧ من شهر فنتوز السنة السابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

ان بونابرت القائد الاكبر مفوض اليه ان يشعركم بان الجزار باشا قد ابتدأ باشهار العداوة لمصر عند هجومه على قلعة العريش . وان الله عاضد العدل قد رزق الجيش الفرنساوي نصرا مبينا فاستعاد القلعة المذكورة وانه من جزاء هذا الامر قد دخل ارض فلسطين ليطرد منها جنود الجزار باشا الذين لم يكن يجب عليهم ابدا ان يدخلوها وان يافا محاصرة من جميع جهاتها . وان

بطاريات المدافع ستهدم في ساعتين من الزمان السور وتدك حصونهم دكاً وان فؤاده يتوجع لما سيحل بالمدينة كلها من المصائب والنكبات بمقاومتها لعولجنوده وانه يقترح الامان لحماية المدينة ويوعجل الامر باطلاق النار إلى الساعة السابعة صباحا   اسكندر برتيه

فكان لقراءة ذلك البلاغ رنة تذمر عند الجميع وقال الباشا ارانا جميعنا متفقين في الرأي · فهل ينبغي لنا ان نشعر الاهلين بمضمون هذه الرسالة

فاجابه مملوك مدجج باسلحة ثمينة ولابس ثيابا فاخرة وعلائم العجرفة بادية على وجهه

وماذا يهمهم هذا الامر

فحينئذ قال القائد الاعلى بخشوع قرر المسألة يامراد فانت تتكلم بلسان بكوات مصر العظام وباسم الجزار نفسه وكان مراد قد شفي من جرحه ولم يبق عنده من اثر له سوى البغض ومحبة الانتقام · فتولى زعامة تلك الجلسة الحربية برضى الجميع وقال · ومن يجسر على ارسال هذا البلاغ المحقر الينا

— رجل تركي اسر في الرملة

— فليقطع رأسه وليطرح في خندق الفرنساويين الامامي بمثابة جواب لهم

فاجري امره للحال وقال مراد · اتيتكم من قبل ابراهيم بك والجزار باشا تجلدوا بضعة ايام اخرى فيتقدم لنجدتكم الاسطول الانكليزي الباذل وسعه الان للبلوغ اليكم باسرع ما يمكن وسيكون لديكم في عكا وقت كاف لاعداد معدات الدفاع · فقال القائد العثماني حسنا قلت فان الجميع

سيحتشدون على الاسوار مـا عـدا الالبانيين الـذين اطلق سراحهم في العريش السلطان بونابرت.

— ولماذا

— لانهم تعهدوا بالا يحاربوه

— وهل اقسموا بذلك

— هل اقسموا على القرآن

— لكلب مسيحي ... فن المقضي عليهم المحاربـة معنا دون ان يهتموا بذلك القسم الفاسد الكفري . سلحهم وانا اتولى قيادتهم

فللحال اطاعوا امر مزاد وسمع صوت عن بعيد ينبي، ان رأس الرسول قـد قطع والقي الى المحـاصرين . وحينئذ استؤنف اطلاق القنابل على المدينة فتهدم قسم من السور الخارجي في الجهة الجنوبية الشرقيـة وجعلوا يتوقعون انهدام ما بقي منه قبل انقضاء ذلك النهار

وقال المملوك الشاب لمعاونـه . ياعبدالله ربما كانت مغبة هجوم الاعداء وخيمة علينا فلا يحق لنا ان نموت هادوءن ان نأتي عملا يذكر فيشكر . فهم بحاجة الينا في عكاء اسرع الى المرفأ وهيى، لنا زورقا واعـد رجالا اشداء امناء للتجذيف ودعهم ينتظرونادون ان يبدو ادنى حركة

— الا يسد علينا هؤلاء الشياطين طريق البحر

— ان سفائنهم باقية في الاسكندرية ولم يبد لها اثر في هذه الانحاء وان ما شاهدته في عرض البحر هودارعةانكليزية اتفقنا مع ربانها على حماية البحر من الاعداء

— ولكن سقوط المدينـة في ايدي الفرنساويين يضطرها الى مغادرة

هذه البقعة

— لا تبرح هذه الارجاء قبل ان تأخذنا معها فسدني سميث اصدر اوامره بهذا الصدد

وذهب عبدالله الى المرفأ لاجراء اوامر المملوك الزعيم وكان قد فوض الى فصيلة من الجنود الالبانية امر وقاية الزورق من اعتداء الفارين

وبقي اطلاق المدافع متواصلا سحابة ذلك النهار كله وعند الساعة الرابعة سقط السور الخارجي في الخندق فطبقت الفضاء اصوات الفرنساويين وصاحوا جميعهم فلنهجم فلنهجم

الا ان تحدر الثغرة في ذلك السور لم يكن يمكنهم من الدخول بغير سلالم وكان الليل قد اوشك ان يدخل فخشي المهاجمون من اختلاطهم بالاعداء تحت جنح الظلام فصاح القائد لان بالمدفعيين ثابروا على اطلاق القنابل على الثغرة لتوسعوها فغدا عند طلوع الفجر نهجم على المدينة

وجاء رجل من الالبانيين الى مراد مسرعا وهمس في اذنه قائلا . اخشى من سقوط زورقك في ايدي الفرنساويين فانهم ابتدأوا يتسلقون السور عند زاوية المرفأ

فاندفع المملوك الى ناحية البحر والحسام مشهر في يده وصاح . سيروا بنا جميعا الى المرفأ وقولوا للباشا ان يبذل وسعه للمحافظة على ثغرة السور وسادفع هجمة الاعداء من جهة البحر

وكان قد فات الوقت لتحقيق اماني مراد لان جنود فصيلة بون التي فوض اليها بعد الظهر اشغال الحامية في جهة المرفأ كانت قد دخلت المدينة بكل جراءة وجعلت تبدي من فنون البسالة اشكالا والوانا

ولما علم القائد لان بما اجرتــه فصيلة بون وما نالته من الفوز اصــدر الامر بالهجوم على الثغرة لنجدة تلك الفصيلة ولم يــال بــدخول الليــل واضطراب حبل النظام بين الجنود ٠ فدخل الفرنساويون من الثغرة ظافرين وحينئذ لم يعد شيء من الاشياء يحمي المدينــة من فظائــع الخراب فانتشر الجنود الفرنساويون في كــل جهات المدينة وجعلوا يعيثون فيها فسادا ولمــا التقوا بفصيلة بون كان مراد قد جمع اليه الالبانيين بغية تأخير الهجوم على المرفأ وعالج تقطيع نظام الفرنساويين المحيطين بالشوارع الواطيــة ٠ وكان يتقدم بجرأة عظيمة ومعه شرذمة من الابطال الى اركان حرب الفصيلــة المهاجمة ولكنه ما عتم ان صاح بغتــة بصوت التعجب وانثنى منقلبا بكل سرعة ٠ فقال لنوبه والقذائف ترش كالمطر ٠ وهو ايضا هنا٠٠٠

وكان قد شاهــد بين الضباط المهاجمين رايموند بارسفال الذي كان يبحث عن ضالته المنشودة بين المماليك فصاح المملوك بعبدالله ٠ هلم بنا ننزل الى الزورق

— الباشا ينتظرك في المركب الذي ليس لنا من معقل سواه في هذا المكان

— بعد قليل من الحين اتبعك ٠٠٠ تعال الي ايها الاعرابي الشيخ

فاسرع الرجل المنادى وحينئذ قال له مراد ٠ الا تحسن الرماية ٠٠٠ لقد رأيتك امس مساء من اعلى الابراج ترمي النار على رجل افرنسي وتقتله على مسافة مائتي قدم

— اجل اني فعلت ذلك الامر

— وانــا كافأتك على ذلــك باعطائي اياك تسعين فرنكا

— اذكر هذا الامر يامولاي

— ساعطيك ضعف هذا المبلغ ان انت اطلقت النار على الضابط المشهر سيفه للحاق بنا وقتلته

— انه من المقضي عليهم بالموت

قال الاعرابي هذا الكلام ورفع بندقيته الى كتفه . وكان اثناء ذلك الحين قد احتشد حول بارسفال جمهور غفير من المهاجمين . ولما اطلق العيار الناري هوى ذلك الضابط الى الحضيض واختفى بين الجموع . ففرح مراد عند روءيته اياه ساقطا الى الارض والقى كيس المال الى الاعرابي . ثم قال سيروا بنا الى المركب وصعد الى الزورق . ثم ان ذلك الملوك قال للاعرابي الذي ساعده على ركوب الزورق وعاد الى حشو بندقيته الهائلة اتريد المجيء معي . فلك محل هنا تنجو فيه من الردى .

— لا اشاء الذهاب

— لا يجديك عنادك نفعا . ما اسمك

— محمد .

— يامحمد اودعك وانذرك بالموت بعد ساعة من الزمان .

— خلص ابني

— هل يحسن الرماية نظيرك

— يفوقني فيها

— قال الاعرابي هذا الكلام ونادى ياعمر . فجاء شاب وبيده بندقية لا يزال الدخان خارجا منها لانه كان يطلق النار على المهاجمين من وراء صناديق البضاعة المتراكمة على رصيف المرفأ

ولما ابصر الباشا طليعة الجنود الفرنساويين تبدو عند مدخل الشارع صاح· سيروا بنا ·

وصاح مراد · تعال ياعمر

فعانق عمر والده الذي كان ينظر اليه بعطف وحنان ووثب الى الزورق · وكان الليل قد اقبل بخيله ورجله فلبث محمد واقفا في مكانه ينظر الى ذلك الزورق الذي توارى وحينئذ عاد محمد الى ساحة القتال بعد بضع دقائق وراء صخر كبير · ولحيته ملطخة بالدم على اثر اصابته برصاصة جرحت خده · وبانت هيئة ذلك الاعرابي تمثل ابا من اباء العهد القديم يسترخص نفسه في سبيل الدفاع

وكان زورق الباشا يبتعد عن البرفجات السفينة الانكليزية لملاقاتهم وكان مراد وهو في وسط الميناء يسرح طائر مقلتيه في المدينة التي كانت النيران ووميض العيارات النارية تبدد شمل الظلام عنها · فاوعز الى المجذفين بان يسيروا الهوينا · فقال له الباشا ان هذا العمل لا يعد من باب سداد الرأي

— ولماذا ··· انهم لا يقدرون على اللحاق بنا لاننا ابتعدنا عنهم واصبحنا بمأمن من وصول قذائف بنادقهم الينا · وهم لم يخرجوا مدافعهم بعد من المعسكر

— وماذا نفعل هنا

— ننتظر ذينك الرجلين الآتيين الينا سباحة لينجوا معنا

قال مراد هذا الكلام ودلهم بيده على رجلين كانا على مسافة خمسين مترا يسبحان نحوهم

فقال الباشا · ان انتظارنا لهم لا يجدي نفعا لان الزورق مشحون واذا

صعد اليه غير الموجودين فيه خشي من انقلابه بمن فيه وخصوصا في المدخل الضيق

وكان البحر هائجا ولاسيا عند مدخل المرفأ . فصاح ذانك الرجلان بصوت عظيم حين ابصرا الزورق مواصلا السير . تداركونا والا بتنا فريسة للبحر

فقال ضابط من حاشية الباشا . انا اعرفهما وسمى يوزباشيين من اركان حرب الموقع . وكان الباشا خائفا من الغرق فقال . انيا متأخرين

فاقام عليه النكير رفاقه وقالوا . يجب علينا ان ننتظر رفيقينا وننقذهما .

فقال مراد . نطقتم بالصواب

ورأى الزعيم ان الاذعان اولى من سواه في مثل ذلك الموقف فصمم على الموافقة على تنجية الرجلين اللذين كانا يسبحان واوشكا ان يغوصا في اللجة . وكانا ضخمي الجثة فرزح الزورق بهما وكاد يغرق في الماء . فقال رئيس المجذفين : اخشى من الغرق عند مرورنا لان البحر هائج جدا عند مدخل الميناء

فسأل مراد . وماذا يجب علينا ان نفعل

فاجابه رئيس المجذفين . يجب تخفيف الزورق

ووصلوا الى الصخور فكانت الامواج تتكسر عليها بعنف . وحين بلغوا مدخل الميناء صاح مراد بلهجة الآمر . فليقذف اثنان من ركاب هذا الزورق بنفسهما في البحر متطوعين

ولما لم يتحرك احد لتلبية امره قال . ليلق بنفسهما الى الماء الرامي والحداد . فجعل ذانك الشابان اللذان سماهما مراد ينظر الواحد منهما الى

الاخر وعلامة الحيرة بادية عليه لانهما لم يكونا يحسنان السباحـة . وكان الموت الزؤام يترصدهما في البحر . فقال رئيس المجذفين . ياصفد انك تحسن السباحة كالسمكة فالق بنفسك الى البحر فتنجو وننجو نحن ايضا

وصاح مراد بصوت كالرعـد القاصف . ياعمر وياصفد ثبا الى الماء وصوب اليهما غدارته . فاراد الاعرابي الدفاع عن نفسه ولكنه لم يكد يتحفز للقيام حتى مـال الزورق فاطلق عليه مراد عيارا ناريـا فصاح عمر بصوت عظيم وهوى الى اللجة وقـد خرقت جبينه رصاصـة مراد . وللحال قذف بنفسه الى البحر فغاب عن الابصار . ثم عاد وظهر على مسافة ثلاثة امتار عن الزورق سابحا نحو المرفأ وهو يصيح بملء شدقيه . فلتحل عليكم لعنة الله

فاجابه مراد باطلاقه عليه عيارا ناريا من غدارته الثانية بيد ان ذلك البحار الخفيف الحركة مال من الجهة المصوبة اليها الغدارة وغاص في الماء . فقال رئيس المجذفين . سيصل سالما الى البر . والان تحذروا فقد اوشكنا ان نصل الى مدخل الميناء . والحق يقال ان ذلك الزورق مر بين الصخور كأنه سهم مرسل عن الوتر فصاح مراد اسرعوا بـالمسير الى السفينـة الانكليزية

وكانت مدينة يافا وراءهم وقد لبست حلة من النار . وكانت اصوات الناس فيها تطبق الفضاء منبئة عما حل بها من النكبات الفادحة

وكان عند زاويـة المرفأ بعض الاهلين المتحمسين يدافعون عن ذواتهم فظهر بارسفال بغتة وراءهم ومعه ثلاثة رجال من المتطوعين في فصيلة بون . وصاحت اصوات شرسة . اطلق النار عليه يامحمد

الا ان الاعرابي الشيـخ كان ينظر الى رايموند كأنه عائد من عالم

الاموات فدهش بارسفال من ذعر الاعرابي ودهشه وللحال خطر في باله فكر غريب فقال لرجاله . اقبضوا عليهما

وجاءوا بالاعرابي الى اليوزباشي بعد ان بطشوا برفاقه فقال له بارسفال بحدة .

هل تعرفني

— نعم انت هو بعينه فان الله يريد موتي

— ماذا تقول

— منذ مدة قصيرة كنت تقود جنودك هناك تحت مكان المشنقة ... فاطلقت عليك النار ولكنك لا تزال حيا ... وهذه اول مرة اخطأت رصاصتي مرماها ومع ذلك فقد ابصرتك تقع على الارض ...

فتذكر رايموند ان ازدحاما شديدا صرعه على الحضيض وعند سقوطه سمع صفير رصاصة مرت عند اذنيه فقال للاعرابي . الم تكن تعرفني قبل هذه المرة

— لم اكن اعرفك ابدا

واشار الى ذويه بان يأخذوا الاسير فدنا منه كرتلي وقال له . هل يهمك هذا الرجل ياحضرة اليوزباشي

— لماذا تلقي علي هذا السوءال

— لانه حين يتوارى عن نظرك يصبح جثة هامدة فقد تلقينا الامر بالا تبقي اسرى معنا

— ان هذا الامر فظيع ... خذ هذا الرجل الى المرفا وقل له ان ينجو بنفسه سباحة

فسار الجندي بمحمد الى شاطئ البحر . وكان ثمت بعض الاتراك يتعمدون الى زاوية المرفا مسرعين تحت انظار الفرنساويين . وكان هؤلاء يغضون الابصار عنهم لئلا يضطروا الى اطلاق النار عليهم . فاشار الجندي بيده الى البحر داعيا الاعرابي الى القذف بنفسه فيه للحاق بالاخرين . فهز الاعرابي رأسه رافضا الاذعان الى ما طلبه منه الفرنساوي

فنظر كرتلي الى رايموند الذي كان اتيا وراءهما وقال له . لا يريد هذا الرجل النزول الى الماء فهو ينتظران يقدم له بعيرا لينجو به في الصحراء فكيف العمل

— دعه . . . وسر بنا

— انهم يقتلونه

— من المحتمل ان يكون هذا الامر فهو رجل شيخ والدم يسيل من خده وهو يكاد يموت

— لا تظن انه صار الى هذه الحال فانه قتل جاويشا من جنودنا وجرح فارسا . فهو يطلق النار على المسيحي كما يطلق النار الصائد على قنيصته . . . ولكن ما باله . . . فيظن الناظر اليه انه يريد شدخ رأسه . . .

وكان محمد ينظر والذعر بالغ منه . رجلا يسبح في البحر آتيا اليه وهو ينظر اليه بعينين يجول فيهما القلق . فصاح الاعرابي في الحال وهو يساعد الرجل على الصعود الى البر . يا صفدهل انقلب الزورق بمن فيه . . . . .

— لا . . . ويحا لهم من لئام . . .

— وماذا جرى لعمر ابني .

— مات

ـــ وكيف كان موته ٠

ـــ قتله مراد

فصاح الاعرابي حانقا وهو يكاديتميز من الغيظ والالم وقبض بشدة على ذراع صفد وقال لـــه ٠ اصدقني الخبر

وكان بارسفال قد امتقع لونه عندسماعه اسم مراد فجعـــل يصغي الى حديثهما ونار الغضب تتخدم في.فؤادهٔفاوجز صفد في حديثه ومد يده نحو البحر فاحنى الشيخ رأسه وكان الناظراليه يقرأ على جبينه كل اشجان الاب وقنوطه ٠ ولم تذرف دمعة واحدة من عينية على خديه ولكن شفتيه كانتـــا ترتجفان وعينيه كانتا محملقتين وقال بصوت يكاد يخنقه الغيظ٠ الويل لك يامراد

وارتعدت اوصال الاعرابي عندشعوره بيد تمس كتفـــه فالتفت الى الوراء فابصر بارسفـــال فسأل هـــذاالاخير بلهجة مضطربة ومن هو مراد هذا الذي تذكره

ـــ وهل تعرفه ٠ هو مملوك وقداعطاني منذ مدة قريبة مبلغا من المال لاطلق عليك النار

فاشتد اضطراب رايمونـــد عندسماعه ذلك الكلام وقال ٠ اهذا مراد ٠٠٠ وهل نجا في زورق بقتله ابنك عمر الذي كان يضايقه

ـــ هل سمعت ما دار بيني وبين صفد من الحديث٠٠٠ واحسرتاه انه قتل ابني ٠٠٠

ـــ اصغ الي ٠٠٠ اتريد الانتقام لابنك منه

ـــ نعم وياحبذا لو كان يتم هذاالامر حالا فانا عبدك وتراني اطوع لك

من بنانك

— اتريد انت وصفد ان تتقيدابخدمتي

—نعم نريد ذلك من كل قلبنا

— اتحلفان على هذا الامر

— نقسم عليه بالقرآن الشريف

وكانت النار تتقد في اعين ذينك الرجلين اللذين كانا ينويان اتيان امر تعجز عنه عجائز وائل ففكر بارسفال في نفسه وقال · اني اخلص هذين الرجلين من الموت · ونادى كرتلي قائلا له · ان هذين الرجلين مقيدان بخدمتي فخذهما الى خيمتي

— ولكن ياسيدي اليوزباشي··

— اذهب وقل لماتورل ان يعتني بهما··· وانا المسؤول عنهما·

— غدا سيعمدان الى الفرار كغيرهما ثم يعودان لمقاتلتنا

— اعلم ان احدهما سنا هو من سكان يافا وهو بحار ولم يقاتلنا ابدا

— اعلم ذلك ولكن رفيقه الشيخ

— سيكون اشد اخلاصا لنا من سواه

— وهل استعملت له الرقية

— نعم

— وهل ينفع هذا الامر ·

— انه افضل شيء يمكن استعماله مع العرب

— اتعني بهذا الامر القوة

— لا ولكن الانتقام

محمود

٧

وكان الليل قد اقبل لما خيم الجيش على ضفة نهر قردانه اليسرى من جهة عكاء الاخرى وجاءت اركان الحرب بين الاجام وغياض القصب لاستطلاع موقع تلك الارض فتحقق بارتيه ان الجسر كان مهدوماً ولكنه قال ان الجنرال اندريوسي سيعيد بناءه هذه الليلة بعينها وغداً ستتمكن من الهجوم على المدينة . وقال لان بلهجة التأكيد الخالية من اثر الخفة والطيش . وبعد ثلاثة ايام نستولي عليها

فالتفت اليه بونابرت وهو كثير التفكير وقال . لم تصب هذه المرة بالان فلسنا في يافا حيث جنينا ثمار الانتصار من مفاجأتنا لها . فلا يخفى عليك ان عكاء تتناول النجدات من جهة البحر بغير انقطاع وان الاميرال سدني سميث يأتيها دائماً بالمدد ولديه في سفائنه بطاريات مدافع قوية . وفي المدينة قلاع حصينة ولها سور متين وقد لجأ اليها الجزار بنفسه . وبناء عليه فلا نرى لنا مندوحة عن محاصرتها بموجب قواعد الحرب الفنية . وهذه الوقعة ستكون اخر الوقعات لحملتنا . . .

ـــ نحن نجهل حقيقة تحصين المدينة لان الضابط الغي وكلنا اليه مهمة مفاوضة الجزار لم يعد الينا بعد . ولم نحصل منه على ادنى افادة تتعلق بهذا الشأن ومع ذلك فلا بد لنا من المفاوضة مع من هم في داخل المدينة

فقال بونابرت ادعوا الي بارسفال فقد اقترح علي امس ان آذن له بدخول

المدينة متنكرا

— ان ركوب مثل هذا المركب الخشن يؤدي براكبه الى موت محقق لان فيليبو الجاحد يوزباشي المدفعية الفرنساوية سابقا هو الان منتظم في سلك خدمة الاتراك ...

— اني اعرفه معرفة حقيقية فهو ذو نفس لئيمة وذو وجه وقح

— انه متول قيادة مدفعية الجزار ولا يستطيع رجل اوروباوي ان يدخل المدينة دون ان يقدم اليه .... وان تنكر بارسقال لا تجديه نفعا

ولما سمع رايموند هذه الملاحظة قال · اني انفذ رسولا امينا ولا افارقه الا عند اسفل السور

— وكيف تضمن اخلاصه

— اتحمل مسوءوليته يامولاي القائد · فهو الرجل الذي اسرناه في يافا ...

— اجل انه الاسير الوحيد ...

— ان ضباط الجزار قتلوا ابنه ·

— ان انتقاما شخصيا موحى اليه وهو لا يتعمد شيئا سوى اطفاء لهيب ذلك الانتقام

— ونحن ايضا لنا خطة نتبعها · ايمكنني ان اعده بحصة من الغنيمة التي نصيبها عند هجومنا على المدينة

— افعل ما تريد ياحضرة اليوزباشي

ولما كان اندريوسي صاعدا بفصيلته في نهر قردانه ومستوليا على السهل المشرف على المدينة والنهر وهازما امامه طلائع الاعداء وواصلا علاقاته مع

الجيش المخيم على ضفة النهر الاخرى كان رايموند ومحمد وصفد سائرين الى ناحية مصب النهر . وكان الرجال الثلاثة قد اختبأوا بين القصب وجعلوا يتحدثون همسا فقال بارسفال .

يجب عليك يامحمد ان تسير الى ذلك الخفير المقيم عند مقدمة جيش الاتراك وتخبره انك من عداد الفارين من مدينة يافا وانك تطلب ان تخدم مع مماليك مراد

فقال الاعرابي بلهجة جدية . هذه هي الوسيلة الوحيدة للوصول اليه

وقال اليوزباشي للاعرابي وهو ينظر اليه نظرة معنوية . انك تذكر دائما ما اقسمت عليه

— نعم .. ولو مر مراد امامي في محل منفرد عن الناس بحيث تصل اليه رصاصة بندقيتي فاني احبس يدي عن اطلاق النار عليه قبل ان اعرف ما تريد اجراءه فيما يتعلق به

— ان حياة مراد تخصني فقبل ان اعطيكها يجب ان اخاطبه

— امالك على هذا الامر وادري ان الافرنسيين لا يشق لهم غبار فهم ولا مراء سيستولون على عكاء وسيقع مراد اسيرا في ايديكم ولكن اريد ان تحلف لي بالشرف العسكري ان هلاك هذا الملعون لا يكون الا بيدي

— كلام الفرنساويين شريف

— نظير كلام عرب البادية

بناء عليه استعد للسفر وتحذر بنوع خاص من رصاص بنادق الخفراء

— لا تصيبني ... ففي ثلاث ليال في المعسكر ...

— لا تعالج الوصول الية وان خفت ان تستهدف للهلاك بدون فائدة . ففي

الليلة الرابعة اوافيك انا وصفد بعدطلوع القمر بساعـة من الزمـان فننتظرك ويمكنك ان تدخل الى المحلة دون ان تخشى شيئا ... فان انا لم اكن هناك او اذا انت لم تستطيع الخروج في الحين الملائم فاذكر اسم اليوزباشي سارجي ووافه ذاكرا له اسمي لانـه واقف على كل شيء

فودعه الاعرابي الشيخ وسار نحو المدينة ولبث رايمونـد والبحار واقفين مكانهما والقلق بالغ منهما ولما اقترب الاعرابي مـن الخفير نـاداه بصوت منخفض فاجابه الخفير قائـلا . قف مكانك والا اطلقت عليك النار

ـ حـذار من ان تنبـه هوءلاء النصارى الكلاب ... فانا من عداد الذين نجوا من يافا ...

ـ انت كذاب فلم ينج منها احد

ـ اذهب الى ضابطك وقل له ان مرادا شيخ المماليك يعرفني ...

وعند ذكر محمد ذلك الاسم المرهوب نادى الجندي رؤساءه فقال احدهم للاعرابي غير المنظور . تعال الينا ويداك على رأسك

فاجابهم الاعرابي على ما طلبوه منه وادخلوه المدينة بعد ان القوا عليه عدة اسئلة موجزة لم يشتبهوا به منهـا بشيء يقلق البال . وقال ضابطهم اذا كان مراد يعرفــه فاخلوا سبيله والا فاقتلوه رميا بالرصاص

وجاء بارسفال وصفد الى المحل الذي بنوا الجسورة الموقتة عند المحل المخيمة فيه جنود اندريوسي فقال صفد انه سيبلغ وطره

ـ وهل يكون امينا لنا

ـ يحبك محبته لابنه ويحترمك احترامه لمولاه . فانت فاضل وكريم وسلطانكم الكبير يحبه الله

— وهل تتمنى انت نجاحنا

— احب بلادي وارى انكم تريدون نجاحها فانا ومحمد تحرينا ان نكون عبدين لك ما دمنا في قيدالحياة

وكان صدق السوري ينعكس على مقلتيه ومضى بارسفال الى سارجي واخبره بما جرى وخيم الجيش في السهل الفسيح المنبسط امام المدينة

وساروا بمحمد الى قصر الباشاحيث كان مراد ومماليكه مقيمين فتلقاهم جندي الباني وقال لهم انا اركان الحرب مجتمعين في مجلس حربي وقد امروا ان لا يزعجهم احد بشيء من الاشياء الا لامر في غاية الاهمية

فقال له رئيس الخفراء بناء عليه فاني اترك لديك هذا الاعرابي واربعة من رجالي لخفارته

وعند خروج مراد المملوك من المجلس اخبره ان هذا الاسير يطلب منه وان كان هذا الاعرابي كاذبا في زعمه عرف رجالي ما يجب عليهم اجراؤه به

وكان يسمع من وراء الستائر المرخاة اصوات الزعماء والجزار جالس في الوسط وهو يسمع محاورة جلسائه ومباحثتهم

وكان بينهم مهاجر افرنسي يدعى الامير الاي فيليبو وقد خان وطنه مرتين بفراره منه وانضمامه الى اعدائه لمقاتلته . فرسم لهم خطة الدفاع عن المدينة . وكان بجانبه رجل انكليزي ساكن الجاش يتبسم تبسما معنويا ويبذل ما في وسعه لتسكين ثورة الافكار المتأججة عن حدة مراد . فكان ذلك الانكليزي يلقي من حين الى اخر بعض كلمات موجزة مشتركا معهم في مباحثتهم . واما الضباط الاخرون الاتراك فانهم لبثوا صامتين

كزعيمهم لان شروح فيليبو في مايتعلق بالامور الحربية الفنية كانت تروقهم . الا ان مرادا لم يكن ميالا الى فيليبو فخاطبه باحتقار قائلا . الا يريد الامير الاي فيليبو ان يقول لنا ما هى الخطة التي يريد انتهاجهـا بونابرت صديقـه القديم

فاضطرب فيليبو عند سماعه اسم فاتح ايطاليا ومصر وتمثل لذهنه كل تاريخ حياته وحسده لذلك القائد الذي ملاءت الافاق شهرته . فكان قد اغمض عينيه عن فرنسا ولم يعد ينظرها وكان كل همه موقوفا على طمس اثار مجد ذلك الذي كان يسميه عدوه . قال . ان جيش بونابرت يباشر غدا حركاتـه الحربية بدنوه من سور المدينة وبتصويبه كل قواه على البرج الكبير المبنى فوق الزاوية الناتئة الموصلة بين جهتى السور الجنوبية والشمالية

فقال القائد الانكليزي بكل رباطة جاش . ان عمله هذا سيكون من باب الحماقة

فسأله الجزار . ولماذا

فتبسم الامير الاي فيليبو عند سماعه سوءال الجزار الدال على الجهل وقال . لان هذا البرج متين البنيان يقتضي هدمه مدافع كبيرة مخصصـة للحصار

— واي شيء يضطر الفرنساويين الى اضاعة وقتهم بمعالجتهم هدم هذا البرج .

— ان هذا الامر من جملة قواعد الحصار . . . واما المدفعية فتزعم انها فتحت ثغرة في سور يافـا بمدافعهـا الخاصة

— أ الى هذا الحد يبلغ جهل الفرنساويين

وكأن بقية من عاطفة محبة الذات استيقظت في فؤاد ذلك الخائن الذي جفت فيه موارد محبة الوطن فرنا الى الجزار بعين الاحتقار وقال له · ليسوا بجهلة ولكننا ركبنا مركب الحكمة بمنع روادهم عن دخول المدينة فهل انتم على ثقة بانه لا يوجد خونة هنا ·

فصاح مراد قائلا · انا المسؤول عن هذا الامر

ــ بناء عليه فهم لا يدرون مـا يتوقعهم بعد خمسة عشر يوما من هجومهم على البرج الكبير وحصارهم المدينة على غير طائل

فقال القائد الانكليزي · امالك على زعمـك باحباط مسعى بونابرت ولكن بعد الخمسة عشر يوما ····

ــ بعد الخمسة عشر يوما يحدث امر بسيط جـدا فحين يرى تـداعي حصون قوى رجاله يعقد عروة عزمه على مهاجمة الجهة الشمالية او الجهـة الجنوبية من السور وحينئذ ننظر اي جهة يقر رأيه عليها

ــ وماذا نفعل في ذلك الحين

ــ نقيم حصنا وراء الثغرة نضع فيه امهر رماتنا وحين يتسلق الفرنسويون السور من جهة الثغرة نمطر عليهم مطرا غزيرا من القنابل ونمزق شملهم تمزيقا بعد ان نذبح منهم مذبحة هائلة

ــ ثم ماذا ·

ــ وبعد ذلك تزحف النجدات المحتشدة عـلى ضفـاف الاردن على الفرنساويـين المتضعضـع امرهـم وتضطرهم الى رفع الحصار

ــ وهل ينكسرون

ــ لا· لانه لا يخفى عليكم ان الانكليز والاتراك لا يستطيعـون ان

يكسروا الفرنساويين ولو كان اليأس قد بلغ منتهى غايته من هوءلاء الاخيرين

وكان هذا التلميح الجارح عن انكسارات المتحالفين داعيا الى اثارة سخط الضباط الاتراك فتولت فيليبو كآبة مقرونة بالخجل · ولما لم يعد في قوس صبره منز ع ضرب المنضدة بيده ضربة قوية وصاح بمن حوله قائلا ضعوا حدا لثرثرتكم والا ابحرت الى القسطنطينيــة وتركتكــم مضعضعي الاحوال

فهال الجزار ذلك التهديد لانه كان خائفا نظير غيره من الاتراك ان يرقى امره الى مسامع السلطان فيعلم انه كان جانحا الى القاء حمل سيادته عن منكبيه وسأله مراد بلهفــة· ولماذا يغادر بونابرت عكاء بعد فتحه اياها ودخوله اليها ظافرا

— ليعود الى فرنسا

— اتقول انه يغادر مصر

— يترك كل شيء ليرجع الى باريس

— ومن اين تعلم هذا الامر

— من الانباء الواردة من اوروبا ومن معرفتي ما هو منطو عليه هــذا الكورسكي من المطامع والاوهام

فقال القائد الانكليزي · اتظن ان انكسارات الجيوش الفرنساوية في ايطاليا ····

— ان ظنك في هذه المسألة كظني بها وهذا ما يجعلك ساكن الروع ياسير سدني سميث · وانت دار ان مشاغب اجاشيو يريد ان يبرز لفرنسا كمنقذها ويأبى ان يظل محصورا مدة طويلة في الارض التي اراد الديراكتوار

ابعاده اليها الى ما شاء الله

فانتفض مراد من شدة الابتهاج وعلل نفسه بامال جديدة قائلا · ان مغادرة بونابرت لمصر هى ولا مراء الخلاء الافرنسيين لبلادنا

وقال الجزار · انا ريثما يتم لنا هذا الامر يجب علينا الاهتمام بعكاء والدفاع عنها

فقال فيليبو الذي محا بغضه الشديد لبونابرت ما كان وخز الضمير على خيانته قد خطه على صفحات فؤاده · اتحمل عبء مسؤولية الدفاع عنها على شريطة ان تكون المدفعية والاستحكامات خاضعة لاوامري رأساً

فقال الجزار وهو ناهض للخروج من المجلس · ليكن كما تشاء

وانتهت الجلسة الحربية فجاء ضابط الخدمة في القصر وقال لمراد · بالباب اعرابي يطلب منك ·

— اظن هذا الاعرابى حامل لي انباء من ابراهيم

— لا اعلم · وهو يريد مخاطبتك

— انا ات ٍ اليه

قال مراد هذا الكلام وسار مع الالباني · ولما انتهى الى الرواق ابصر محمدا فعرفه في الحال وقال له بلهجة المشكك وهو يراقب كل حركة من حركاته · وكيف تمكنت من الفرار من يافا

اختبأت في النهار وتمكنت من الهرب في الليل وها انذا ات ٍ اليك أاتيت لموافاة نجلك عمر

— نعم فاين هو

— اوفدناه بمهمة على ساحل البحر

— ومتى يعود ·

— لا يلبث ان يرجع الينا اللهم اذا لم يكن قد قتل

فقبض الاعرابي على مقبض سيفه وهم بالفتك بمراد ولكنه تذكر بارسفال وتجلد · ثم قال وانا ايضا احب التقيد بخدمتك

— اقبلك بسرور وافتخر بمن كان مثلك يجيد الرماية

— احب التقيد بخدمة شخصك ·

— ولماذا تحب التقيد بخدمتي دون سواي

— لانك شجاع وغني وجواد··· وانا سئمت نفسي من عيشة البادية وصرت اريد الاقامة في منزل زعيم من كبار الزعماء

— فليكن ما تشاء وابق عندي · وغدا يهيء لك عبدالله ملابس نظير الملابس المتردي بها رجالي فتصير من عداد المماليك لاني لا استطيع نكران الجميل نحوك

— وماذا فعلت معك

— كفيتني في يافا موءونة عدو من الد الاعداء الا تذكر ذلك الضابط الفرنساوي ·

فتجلد الاعرابي واخفى فرحه لان امانيه واماني رايموند كانت موشكة ان تتحقق بسهولة لم تكن في الحسبان

وكان راقدا في المحل الذي يرقد فيه رجال مراد فسمع الاحاديث التي كانت تدور بينهم تحت جنح الدجى ولكنه لم يفه بادنى كلمة · فالسر الذي كان راصدا للوقوف عليه لم يكن ليختفي عن ذكائه · ولما طلع الفجر جاء الى قيم منزل مراد وطلب اليه ان يساعده في العمل فارتكب في هذا

بالعمل خطأً لا يغتفر لان القيم التفت إليه وقال له

انت رجل كاذب تزييت بزي اعرابي لتخدعنا وهذه اول مرة رأيت فيها اعرابيا يعمد الى مزاولة مثل هذه الاعمال البيتية

فهز محمد منكبيه ودار ظهره ليذهب ويخبيء الاضطراب الذي اصابه عند سماعه كلام ذلك القيّم . واذا بهذا الاخير يناديه قائلا . لا بأس من ذلك ... تعال لمساعدتي ... فنحن نستقي ماء من الحوض وانا اساعدك لتحمله الى هذا المكان

فسار الاعرابي بذلة وخشوع وراء القيّم . وكان في عرصة الدار جب منقور في الصخر مضت عليه السنين الطوال ويظن انه من اثار الصليبيين

ولما ملاءوا الجرار والقرب حملها لاعرابي الى غرفة مراد التي دله عليها القيم وكان مراد مضطجعا على طنفسة وغائصا في لجة الكرى . فقال له القيم سر معي الان واياك ان تبدي اقل حركة

فسار الاعرابي وراء القيم وهو حامل الجرار المملوءة ماء في دهليز ضيق ومظلم . فاراه القيم باشارة خصيا اسود نائما على عتبة باب وقال له . ضع الماء الى جانبه فيجده عند هبوبه من النوم

فقال الاعرابي بعدم الاكتراث وهو سائر وراء القيم . هل المولى متزوج

— وهل يعنيك هذا الامر

— نعم لان الملوك يحتقر ثلاثة امور . السلم والعمل والمرأة وانا اتأسف لكون مثل هذا الزعيم الهمام ....

— اصمت يا ثرثار وحذار ان تتكلم امام اي كان من الناس عن

حريم مراد ... وفضلا عن ذلك فهو غير متزوج ومن المحتمل ان تكون هذه المرأة اخته ...

فناجى محمد نفسه قائلا · لدي يومان استطيع في خلالهما ان اتحقق عما اذا كانت هذه المرأة السرية ابنة ابراهيم المملوك وبعد ذلك اوقف ر يموند على حقيقة حالها ... فان الله يسني لي هذه الفرصة لاتمم مهمتي في وقت قريب

وبينما هو يلوك هذه الافكار في رأسه انفجرت في حديقة القصر قنبلة اطلقها الفرنساويون من مدافع الحصار

منصور

٨

وكان صباح يوم من ايام نيسان معطرا بارياح الازهار والطيوب العطرية وكان النحل يحوم على الازهار والطيور تتنقل من شجرة الى اخرى صادحة صداحا شجيا

فلما انفجرت اول قنبلة في الحديقة اجفلت كل تلك الخلائق الصغيرة وامتلاء الهواء من رائحة البارود فطارت العصافير والنحل واصبحت الورود والرياحين منتثرة

وبرز من احد الابواب شيخ عليه هيئة الاضطراب وله لحية مسترسلة على صدره تزيده هيبة وجلالا فاجال في الحديقة نظرا مضطربا · ولما تحقق انه لم يكن ثمت احد دنا من نافذة مقفلة وصاح بصوت منخفض · ياوردة

ففتحت النافذة وبدا منها وجه لامع كالشمس يفتن الابصار بجماله الرائع ٠ وكانت الفتاة المصرية ترتجف مما سمعته من انفجار تلك القنبلة ومن الاشباح التي رأتها في الحلم ٠ فقالت بصوت لطيف ٠ أأستطيع البروز الى الشمس ٠ فلا يوجد سواك في هذا المكان يا ابي ٠

ــ تحذري يا ابنتي فيبين لي ان قذائف الفرنساويين تستطيع الوصول الى هذا المكان

ــ هي قنبلة ضلت عن مرماها ٠٠٠ ولكن لا بأس من ذلك فما هو مقدر سوف يحدث ولا محالة ٠٠٠

ــ لا استحسن من فمك مثل هذا الكلام الذي يحسن بي التفوه به ٠ فان لوردة الصغيرة الاسباب عينها التي تدعو عمها منصور الى الاذعان والاستسلام للقضاء والقدر

ــ سكن روعك يا منصور الحكيم وكن ناعم البال من جهتي واسمع لسعيد الاتي من لدن الباشا وبدا الخصي من وراء المصرية وانحنى باحترام امام سيده متبسما تبسما يدل على الابتهاج ثم قال ٠ اجل يا مولاي ان النصارى قد اطلقوا القنابل والقذائف على قصر الباشا ليلقوا الذعر في فؤاده ولكنهم ارادوا بهذا الامر ان يحولوا انظارنا عن الثغر التي يريدون فتحها في السور ٠ فالسيد مراد مسرور لان الفرنساويين قد نشبوا في الحبائل المنصوبة لهم بهجومهم على البرج الكبير وتدل قرائن الاحوال انا سنقضي خمسة عشر يوما بالراحة والسكينة

ــ نعم ويمكنني بدون قلق ان اخليك هنا يا وردة الصغيرة

فصاحت وردة بخوف ٠ الى اين تريد الذهاب ٠ فانا اسير معك ايان

سرت ايها العم القاسي القلب ·

وركضت الى الحديقـــة وراء الشيخ فقبضت على يده متوسلة وقائلة · اذا ذهبت لم اجد لي بـــداً من الذهاب معك ···

ـــ يابنية انا مصمم على مكافحة الاقدار ومناصبـــة الاخطار ولا يمكن المرأة اتيان ما انا عازم على اتيانه

ـــ ولو تنكرت ولبست ثياب فارسي

فنظر منصور اليهـــا مدهوشا وقـــال · ان هذا الفكر لم يكن يطرق مخيلتك البتة منذ شهرين ··· فاي تغير طرأ عليك يابنية منـــذ وفـــاة والدك ··· والحوادث التي المت بك فاحمر وجهها عند سماعها ذلك الكلام ولم تجبه بنت لسان وغشت الكابة جبينها وازدحمت في ذهنها تذكارات قديمة · فللحال بادر الشيخ الى مخاطبتها بالكلام الاتي بلهجة ابوية · لا انحي عليك باللائمة بشيء من الاشياء ولا اعاملك بنفس القساوة التي يعاملك بهـــا مراد لانني احترم احزانك

ـــ وهل تريد ان تتركني وحدي معه

ـــ او ليس هو العضد الطبيعي لك بعدي والصديق الامين

ـــ انه يقذف الرعب على فؤادي فان عنفه بدون سبب وظنونه ···

ـــ انه يحبك محبة شديدة · الا تزالين مصرة على غيك

ـــ لا شيء يستطيـــع ان يقوض دعائم عزمي

ـــ الا تريدين ان تصيري له زوجة ·

ـــ لا · لانه لم تأت الساعة بعد لهذا الامر ولست متعودة ان افتكر بمثل هذا الفكر ولا اقدر ····

ـــ ومع ذلك فانــك تصيرني سعيدا ٠٠٠ وناعم البال ٠٠٠

ـــ اتأسف لانني لم اعد تلك الفتاة التي اعدها جنسها وشبابها لكل مقتضيات اللين ٠٠٠

ـــ ويحا للفرنساويين الطغام فقد افسدوا كل ما مسوه ٠٠٠ لقد كنت عائشة عيشة راضية في الكرنك قبل غشيانهم لتلك الارض وكنت خطيبة لمراد ٠٠٠

ـــ لا اعلم ولم اعد اعلم شيئا

ـــ نعم فمنذ الحين الذي دنست فيه انظار الفاتحين نفسك فارقنا فكرك مع ما كان من تطهير النار ومياه النيل لتنقيته

ـــ بما انك تراني ضعيفــة فابق عندي او فخذني معك

ـــ لا يمكني اجابة سوءالك لانهم ينتظرونني في بيروت ٠ ومن هناك يقضي علي ان امضي الى طبريا لموافاة مولاي ابراهيم بك على ضفاف الاردن حيث احتشدت جيوشنا

ـــ لماذا لا ترسل مرادا الى شيخ البلد

ـــ لقد صدرت اوامر المولى فلابد لي من الطاعة ٠٠٠ فسهلي الطريق الموءدي الى تتميم واجباتي وعديني بانك لا تستقبلين مرادا بوجه عبوس

ـــ يجب عليه والحالة هذه ان لا خاطبني البتة عن بغضــه ٠٠٠ فانــا احبك واحترمك لانك لست حقودا ٠٠

ـــ هو شاب حــاد الطبع ٠٠٠ وهو لا يعيش الا لاجلك

ـــ ولاجل اطفاء نار البغضاء من فوءاده باهراقه عليها نار الانتقام ٠٠٠

وانا ادري ... فصمتت ولم تعد تكمل حديثها واغمضت عينيها لان صورة رايموند تمثلت لذهنها

فقال لها منصور . منذ خرجنا من يافا لم يعد القلق يجري في قلبه البتة وقد لانت نفسه الحربية وهو لا يفكر الان الا بالعودة معك الى مصر

— بعد ان يعفّي اثار جميع الفرنساويين

— لماذا تدافعين عنهم او ليسوا اعداءنا

فاجابته بكلمة كانت صدى لكلمة سمعتها قبلا وانتفضت عند تذكرها وقالت . انهم بشر مثلنا . فالتفت اليها المملوك الشيخ بحنو لان صوت نفسه الداخلي كان نذيرا له بقرب تصرم حبال حياته وقد تذكر انه كان ممالئا لابن اخيه مراد على بغض الفرنسويين والعزم على ابادتهم وبينما هما على تلك الحال واذا بصوت ينادي بلهجة الامر يا سعيد

فارخت وردة نقابها على وجهها وقالت بمرارة هوذا مراد

وجاء مراد ونور الشبيبة يفيض من وجهه فتقدم الى الفتاة بعد ان لثم يد منصور وقال لها . يا وردة اخبرني سعيد انك هنا فاتيت لاسكن بالك واقدم لكي خدمتي فنحن بامن من كل نائبة . أأستطيع ان اخدمك بشيء من الاشياء

— اشكر لك كرم اخلاقك فلست بحاجة الى شيء

فلم ترق مراد نشوفة وردة ولما الح عليها بكلام التجمل استأذنت بالانصراف . فقال منصور الا ترى يا مراد انك لا تحسن التصرف مع هذه البنية لاستمالتها اليك ... فلا يحسن بك ان تتحدى مثل هذه الطريقة لمخاطبة عذراء يجري في عروقها دم المماليك الكريم ...

ــ اصبت ياعماه ولكنني في هذه المرة سأثأر لنفسي من مقاومتها بتجلدي

ــ اشك في كلامك فان خلقك . .

ــ واحقق لك ان وردة لايمكن ان تكون لسواي لاني ازلت الموانع . .

ــ وما هي هذه الموانع

ــ ان ذلك الفرنساوي الذي كلمها عند بئر الكرنك ... قد قتله

ــ وكيف اقدمت على اقتراف جريمة القتال

ــ قتل في اثناء معركة يافـا . فالرامي الماهر الذي اخبرتك عنه رماه برصاصته وقتله

ــ امحمد قتله

ــ لقد كفاني موءونة الاهتمام به

ــ وهل تعلم ذلك

ــ لا ولكنني ساجعلهـا تدري هذا الامر من اول اسير يقع في ايدينا

ــ وهل هي ناقمة عليك

ــ وكيف تعلم اني دفعت القاتل الى الرمي عليه ... وفضلا عن ذلك فهي بنية لا تدري شيئا . فهذا الرجل القى الاضطراب فـي فوءادهـا لان هوءلاء الغربـاء ذوو السنة حلوة فهـم يتكلمون كما كان يتكلم الاقدمون الذين نطالع حوادثهم في الاساطير . . فهل هي تفتكر به

ــ من المحتمـل ان لا تفتكر بشخصه ... ولكنهـا تفتكر باشياء مبهمة ... فان ريحا جديدة تهب على نفسها ... فعاملها باللين والتوءدة

ــ اني احبها

ــ انا اكل امرها اليك ... وبعد ثلاثة اسابيع على الكثير نعود بها

الى مصر

ــ ابطريق الصحراء نعود

ــ لا٠ لاننا نلقى فيها مشقة عظمى وما عدا ذلك فان جنود المسيحيين يكونوا منتشرين في كل الطرقات بعد تضعضع احوالهم

ــ ايجري في وهمك انهم سينكسرون

ــ لا أعلم ٠ ولكنهم سيبرحون هذه النواحي ليرجعوا الى مصر

ــ وماذا يحل بنا

ــ ان المستقبل سيعيد الينا اراضينا وحكمتنا القديمة ٠ فالله قد عاقبنا على المعاملة العنيفة التي كنا نعامل بها الفلاحين ٠٠٠ وقد قال لي سعيد في الصباح ان الاعرابي محمدا سيكون اطوع لك من بنانك على شريطة ان تهبه ٠٠٠

ــ مبلغا وفيرا من الذهب الوهاج فالنضار اقوى محرك لقراصين البادية٠

ــ اخطأت في وهمك فان هذا الرجل لا يبتغي منك الا ان تمهد له سبيل الاجتماع بنجله

ــ سأنيله سؤاله ٠ فحين يرفع الفرنساويون الحصار عنا يذهب لموافاة عمر ابنه

ــ وهل تدري مقره

ــ نعم ٠ لاني انا ارسلته اليه ٠٠٠

ولما اقبل المساء ودع منصور الجزار بعد ان ودع وردة واوصى مرادا بالعناية بها وركب متن سفينة انكليزية قلته الى بيروت ٠ ومنها كان ينوي المسير الى وادي الاردن بطريق دمشق ٠ فشيعه الى المرفأ كل ضباط

جيش الجزار وخدامه . ولما صعد الى المركب دنا منه ضابط تركي واشار الى اسلحة قائلا له . ان مولاي الباشا يرجو منك ان تسلم ابراهيم بك الهام هذه الاسلحة التي يرسلها اليه

وكان مملوك شيخ يحملها فاستلفت وجهه انظار منصور حين رآه لابسا ثياب خدام مراد وكان يحب منظر الكآبة المنبعثة من عينيه ولحيته البيضاء القصيرة وهيئته الدالة على اذعانه . فقال له باسما وهو يناوله كيسا من الدراهم . اولست انت محمد افندي ابن اخي الجديد . شكرا لك .

— نعم يامولاي انا هو محمد

— انا اعلم انك اب حنون وجندي شجاع فقبل مزايلتي لهذا المكان اوصيك ان تسهر بمقلة اليقظان على وردة ابنة اخي اذا لا سمح الله اصيب مراد بداهية . فنظر محمد الى منصور مدهوشا من تلك التوصية الغريبة التي كانت في وقت واحد تبوح له باسم المصرية وهويتها ووجودها في القصر . فتبسم منصور وقال مالي اراك مدهوشا من سماعك كلامي فلم انظر على مقربة مني سواك يمكنني ان اركن الى حكمته ليجري رغبتي . وانا واثق بقلبك الابوي ... فعن قريب يعود اليك عمر .

— ومن قال لك ...

— مراد

فقال محمد في نفسه وهو يحرق الارم . ويحا له من شقي فقد تجرأ على الهزء بهذا الشيخ الجليل ....

— ان وردة يتيمة فاسهر عليها يامحمد ... والان استودعك الله ..

وعاد الاعرابي الى القصر وهو يتعثر بذلاذل الاضطراب . وكان

سعيد قد سمع ما دار بين منصور ومحمد من الحديث فهرول مسرعا الى وردة وقص عليها كل ما جرى . فقالت له المصرية . ارني من النافذة هذا الجندي الشيخ . واظنه رجلا كريم الاخلاق لان عمي اولاه التفاته

— انظري يامولاتي اليه فانه يسير مطرقا الى الارض في فناء القصر ان علائم الكآبة منتشرة على جبينه ... الي به ياسعيد

— ولكن السيد مرادا ...

— قل له اني اردت انا هذا الامر

فاطاع سعيد وجاء بمحمد الى وردة . فعرف الاعرابي تلك التي كان رايموند قد حدثه عنها من سماعه صوتها الرخيم وقال في نفسه . هذه هي بعينها وعليه فان رايموند سيتشجع ويشدد الحصار وسوف يسقط مراد في ايدي اعدائه . لان سذاجة ذلك الاعرابي كانت تجعله ينسب الى بارسفال قوة فائقة الطبيعة لانه نجا من الرصاصة التي رماه بها . وسألته الفتاة قائلة . وهل اوصاك عمي بان تسهر علي

فاجابها الاعرابي بعد ان لمع في فكره وميض قصد خفي . بعد مراد

فلم يرق وردة ذلك الجواب ففكر الاعرابي بابتهاج بان وردة تبغض مرادا وقال في نفسه . ساحب هذه الفتاة كما كنت احب عمر لما كان في السادسة عشرة من عمره

وسألته الفتاة مبتغية بذلك سبر مقدار اخلاصه . وماذا تفعل اذا فتح العدو المدينة واسرني

اجابها وهو يظهر جدا كاذبا . اقتلك . ثم قال بكياسة . ان انت شئت ذلك

فصاحت وردة بعد ان لاكت جوابه في راسها وتبسمت عند سماعها منه ذلك الكلام الدال على شدة التعصب . لا . فانا انهيك عن اتيان مثل هذا الامر نهيا باتا ... فلتكن مشيئة الله

وكان يلوح من وراء اعتراض تلك الصبية بارق امل مبهم وخرج محمد وهو يفكر في الغبطة التي سيصيبها رايموند حينما يقص عليه ما كان بينه وبين وردة . فناجى نفسه قائلا . انها تحبه . ولثم باحترام اردان الفتاة التي صرفته من عندها باشارة حبية .

خدعة الحرب

٩

وكان ما توهمه فيليبو قد اصبح حقيقيا لان هجمات الفرنساويين الاولى على البرج الحديدي كانت وخيمة المغبة عليهم لاضطرارهم غير مرة الى الانحدار تاركين في خندق السور تحت الانقاض نحوا من ثلثي عددهم .وعاد رماة البنادق القصيرة وجنود الفصيلة الفنية الذين يقودهم كافارلي بعد ان صاروا الى شر مصير

وقال بونابرت . قد جرى في وهمي وجوب اجراء هذا الحصار بطريقة قانونية ومن ثم فانا لا نرى لنا مندوحة عنه . ولنا من ورائنا نجدات متواصلة من الدروز والعرب

وكان الفرح عظيما عند المحاصرين ما عدا رجلا واجما كانه مستاء من الفوز الذي اصابوه فانفرد في قمة السور وكان الناظر اليه يتوهم لاول

وهلة انه يحالج ان يقــذف بنفسه الى اسفل السور الذي احسن الدفاع عنه.
وكان ذلك الرجل فيليبو بعينه

فقال الجزار الى سدني سميث. الا تنظر هذا الرجل فاني اخاله يتعمــد الحربية التي توخى هو بنفسه انتهاجها مغادرتنا لكي يوقف العدو على الخطة

ــ ما دام بونابرت قائدا للجنود الفرنساويين فلا خوف علينا من انضمام فيليبو اليه

ــ وهل بلغ منه البغض لبونابرت مبلغا عظيما

ــ انه يبغضه من صميم فؤاده .وهل تظن انه يساعدنــا لكي نربح الخمسة عشر يوما اللازمة لمجيء اسطول رودس وجيش جوردان لنجدتنا ...
فهو لا يهمه هذا الامر كثيرا ولا يجول في خاطره الا هدم مجد بونابرت لانه يحسده حسدا عظيما

ــ ولماذا

ــ لا يخفى عليــك ان فيليبو فرنساوي تخرج في مــدرسة باريس الحربية وكان في نفس الصف الذي كان فيه بونابرت اي صف مونج وقد امتحنهما لابلاس في وقت واحد وسماهما ملازمين في فرقة المدفعيين منذ اربع عشرة سنة ... ويقال ان بونابرت لم يمكنه ان يهاجر في الثورة لافتقاره الى النقود وخلوه منها . ولم يستطع فيليبو وغيره ان يهاجروا للسبب عينه وفيليبو مهندس بارع وهو يعتبر نفسه ارقى من قائد جنود اعدائنا . وقد عاد الى فرنسا منذ سنتين في اثناء حادثة فركتيدور وكان رجوعه اليها لحسن حظي لانه سهل لي طريق الفرار من سجن الهيكل وكافأته انكلترا على عمله هذا بتسميته امير الاي في جيش الشرق ولكنه كان يؤمل الا يعرض له ان يقاتل مواطنيه

... وقد اشتد بغضه لبونابرت لان هذا قد جعلهم مستهدفين لنبال العطب على يده

فقال الباشا بلهجة المنكر . يجب ملاحظة هذا الرجل لان تبكيت الضمير يمكن ان يقوده الى اجراء امور لـم تكن في الحسبان

— اظن انه يسعى للقذف بنفسه في لجة الوبـال ولعمري ان فقـده سيكون خسارة عظمى علينا لان الاميرالاي دوغلاس الذي يخلفه لا يدانيه في شيء من الفنون الحربية

وفي ذلـك الحين برح فيليبوالسور وسار في الشارع الاعلى وكان الانكليزي والباشا يرصدان حركاتـه فقـال لهما وهو يحرق الارم . ان هولاء المغترين يتعرضون للهلاك هذه المرة ايضا باستئنافهم الهجوم على ثغرة لم تعد موجودة بادوات ضعيفة وصفوف متلززة لا تخطىء مرماها القذائف المرسلة عليها من بنادقنا ... سحقا لهذا الرجل بونابرت من مغفل لا يروى من شرب الدماء . وابتعد عنهم مسرعا لكي لا تعود عيناه تنظران مشهد تلك الشجاعة المغرورة . وقال القائد الانكليزي . اذا لم يقتل هذا الرجل على الثغرة فهو ولا مراء مائت من فرط الحنق

. وكان مراد مهتما بتزيين مثوى وردة في القصر وسهران عليها بمقلـة اليقظان . وكان سعيد ومحمد مقيدين بخدمـة المصريـة وكانت هي دائمة التفكير تحاذر ان تدع احدا يطلع على مكتومات ضميرها . وكانت تسمـع دوي اصوات مدافع الفرنساويين القاذفة قنابلها على المدينة فيقذف الذعر على فوءادها . وكان الناظر اليهـا يدرك لاول وهلة انها مهتمة بالمعركة اهتماما عظيما . ولما علمت ان الجزار يعامل الاسرى الجرحى بقساوتـه المشهورة

ويقطع رووسهم استاءت استياء شديداً وقالت لمراد . انى يستطيع هذاالنذل ان يقتل الاسرى الجرحى .

وكان مراد وهو يسمع صوت تذمروردة يظنه صدى فكر غريب . فتمثل لديه حنق ديزه وبارسفال ... ولكنه تبسم تبسم الظفر عندمـا افتكر ان رايموند قد مات ... ولم يعد يهمه منذ ذلك الحين فصاعدا صدى مبادئه في نفس وردة ... ومع ذلك فقد شعر بغيرة مرة كان يخفيها تحت ستار اللطف واللين وقال في نفسه حين تصير زوجة لي اخمد في ذهنها لظى ذكره .

ولم يشعر بان لطفه الذي لم يكن قد تعود معاملة وردة به كان داعيا الى اضطراب افكارها . فجعلت تسائل نفسها عن سبب تسلطه على اميالـه واراد مراد ان يروح خاطرها فدعـا محمدا الى السور واحب ان يري وردة حذاقته في الرماية فدل الاعرابي على جندي فرنساوي واقف في مكان بعيد تقصر قذائف الاتراك عن الوصول اليه وقال له . ارم هذا الجندي

ولم يكد مراد يتم كلامه حتى انطلقت رصاصة من بندقيـة الاعرابي فهوى الجندي الفرنساوي الى الحضيض وقد اصيبت حوذته بالرصاصة المذكورة

فقال له مراد وقـد بـدا عليه الاستياء . لماذا لم تقتله

— لم ابصره جيدا ... وان عمر الذي له نظر حاد لا يخطىء مثل هذه الرمية فهو يفوقني في الرماية

وكان ذكر الميت يحبس دائما لسـان المملوك عن تتمة سوءالاته فشرع يتأسف على معاملته لعمر بتلك القسوة التي جرت اليه حتفـه ويشعر بوخز الضمير

وعند المساء دنا القائد لان من السور الذي كان المصريون كامنين وراءه فامر

مراد الاعرابي بان يقتله ... فاطلق عليه رصاصة خرقت الورقة التي كانت بين يديه . فصاح بــه مراد مغضبا . انك اردت هذه المرة الابقاء عليه .

— نعم لاني لااشاء قتل الناس غيلة ...

— ومع ذلك ...

— نعم انا ادري ... ان ذلك كان في وقعة وكان الموت يتهددنا

وكان هذا التلميح عن رايموند داعيا الى افتكار المملوك بوردة . وهي ايضا مع ما اتته في منزلها من قتل الجندي الفرنساوي صارت الان تنكر اغتيال الناس على غرة . وكان كل من منصور ومحمــد ووردة يتكلمون بلهجة الصفح وكرم الهزة الا ان مرادا كان يستاء من كلامهم هــنا وصاح بالاعرابي قائلا له . من الان فصاعدا تقيم مع سعيد

فلم يجبه محمد بنت شفة بل رفع بندقيته الى كتفــه واطلق عيارا ناريا على الفرنساويين فهنأه المماليك على اصابته ضابطــا من اركان حربه اعدائهم وقف في الموضع الذي كان القائد لان برحه منذ حين قصير فصاحوا باصوات التكبير . اصبت وقتلته ...

وكان محمد ممتقع الوجه فانحنى فوق السور وجعل يتفرس لعله يتبين شيئا من احوال الاعداء ثم انــه وقف منتصبا وعلامات السرور باديــة على محياه اذ ابصر عند اسفل السور حساما يضرب بندقيتين كانتا مصوبتين عليــه ... وكان ضبــاط لان مــن وراء الاستحكامات ينظرون مــن حيث لا يبصرون الى الواقفين فوق روءوسهم ويفحصون السور فقال لان . لمــاذا تمنعون رماتنا عن رمي هذا الجندي الهائج وصرعه ... لقد اخطأنا كلينا وهذا مما لا يمهد لنــا عذرا للتجاوز عنه ...

ـــ لقد اخطأنا عمـــدا ياسيدي القائد

ـــ وكيف كان ذلك

ـــ لكي ينذرك بوجوب العودة الى مثواك ولكي يذكرني عند بروزي من مخبأي ان خروجي منه لا يجديني نفعا

ـــ ومع ذلك فان هاتين الرصاصتين المصوبتين ...

ـــ ان الاولى عطلت المصور الذي كان في يدك والثانية مرت بين يدي. ولو كان محمد يتعمد قتلنا لما اخطأنا البتة

ـــ اهذا اعرابيك ... ولكنه متزي بزي مملوك

ـــ ليتمكن من خدمتنا كماينبغي له ان يخدمنا

ـــ أ انت واثق بهذا الامر ...الا تراه يدل عليك ...

ـــ سالقاه هذه الليلة على ضفة نهر قردانه

ـــ خـــذ معـــك خفراء يضمنون سلامتك يابارسفال

ـــ ان هاتين الرصاصتين السلميتين تنبئاني باني لا احتاج اليهم البتة

ـــ اسدِ له الشكر من قبلي عن الرصاصة التي رماني بها ولكن الرصاصة التي رماك بها كان يمكنه الاستغناء عنها

ـــ كنت قد اوشكت ان ابرز للعيان فذكرني باني استهدف لسهام المنية وانهم يرون اني قد قمت من بين الاموات في مدة قصيرة

ـــ لا ادري شيئا من دسيستكما السرية ولكن يسرني ان يكون لنا في المدينة شخص نعتمد عليه . فغدا نعلم سبب اخطائه ايانا

وكانت اول كلمة فاه بها رايموند عند التقائه بمحمد تلك الليلة. «وردة» وكانت الكلمة الثانية وهو يضغط بكلتا يديه على الاعرابي . « شكرا لك »

— اتشكرني قبل ان اقول لك..

— لا ولكنني اشكرك لانك في هذا المساء قد انقذت حياة قائدي ومنعت مراد عن اكتشاف مخبأي بتحذيرك اياي في الحين الملائم ...

— هذه هي المرة الثانية التي قتلتك فيها

— وكيف حال وردة ...فكأني بي ارى في عينيك ...

— اني مقيد بخدمتها

فتبسم بارسفال وهو كالنشوان لان برقع الكآبة الذي كان مرخى على جبينه منذ ثلاثة اسابيع سقط للحال وقال للاعرابي الامين . قبل ان تحدثني عنها قل لي لماذا نصيب دائما الفشل في هجماتنا .

— لا ادري السبب

— الم يذكروا شيئا عن هذا الامر امامك

— لم يذكروا شيئا البتة

— وكيف حال الاسوار من الداخل .

ان ذلك الاعرابي الخبير في كل ما يقع تحت عينيه في البادية كان والحق يقال يجهل تماما كان فيليبو قداعده من وسائل الدفاع والحصار. فقال بارسفال . لا مندوحة لي عن الدخول بذاتي الى المدينة للوقوف على حقيقة الحال فيها

— وهل تدخلها بهذا الزي

— لا. فغدا عند دخول الليل اجيء الى هذا المكان وانت تدخلني المدينة

— وكيف يكون ذلك

— ابحث انت لتدبير هذه المسألة وانا سافتكر بهذه القضية ·وعندالالتقاء نقرر الخطة والواجب علينا انتهاجها

— فلتكن مشيئتك

— والان حدثني عن وردة··· فكلي اذان مصغية

فقص عليه محمد ما شاهده في اثناء اقامته في قصر الجزار ووصف له موقع ذلك القصر واجاب رايموندعلى كل الاسئلة التي القاها عليه

وكان بارسفال يسأله بدون انقطاع مسائل كثيرة لا اهمية لها في حد ذاتها وفي اخر الامر تبرم الاعرابي من تلك الاسئلة · ولما قال له رايموند بلهجة الامر · قل لوردة ···

اجابه الاعرابي بازدراء · ويحالك من مغفل الا تعلم ان مولاتي الشابة اذا حدثتها عنك فضحت امرنا وكشفت الغطاء عن حقيقة حالنا

— ولكنها لم تنسني بعد

— من الممكن ان يكون الامر كما تقول ولكن هل فاتك انها مسلمة

— لا بأس من هذا الامر

— وفضلا عن ذلك فلو كنت انت بذاتك هناك للدفاع عن نفسك ولو كانت هي تنظرك في الحالةالتي انظرك انا فيها ···

— في الليلة القادمة استطيع ··

— الا تعلم ايها التاعس الجد ان قصر الجزار كيف لم يخرج منه مسيحي حيا منذ بضعة ايام ما عدا الخونة

— وهل تعرف الطرق الموءدية اليه والمنافذ التي يخرجون منه بها ومجاري المياه الجارية اليه والحدائق الغناء المطيفة به

— نعم وقد بحثت عن كل ذلك لكي اهديك الى مقر مراد عند هجومكم على المدينة وفتحها عنوة

— اراك لا تفتكر الا بانتقامك منه

— وانت لا تفتكر الا بحبك لها

ولما لم يعد في قوس صبر بارسفال منزع اختصر الحديث بقوله . انا محتاج الى الاختلاء والتفكير .... فعد الى المدينة واعدّ كل شيء الى الغد ... فمن الممكن ان اقيم بمثابة كمين فصيلة من رجالي تحت السور لتسلقه على السلالم التي ننصبها عليه.

— لبئس الرأي رأيك

— ولماذا

— لان السور عال جدا ولان الخفراء القائمين على الحراسة كثيرو العدد ...

— غدا اعيد النظر في ما يجب علينا اجراءوه وحينئذ يصير كل شيء متعلقا باعادة نظري ...ولكن المكان الاول في عملي يجب ان يكون لواجباتي الجندية والمكان الثاني لواجباتي الانسانية التي تدعوني الى تمهيد سبيل السلام

— الا تسعى لروءية وردة

فاضطرب بارسفال عند سماعه اسم وردة وقال بصوت متلجلج . بلى وردة ... ولكني ارجىء امر الاهتمام بها الى بعد غد حين اكون قد فرغت من واجباتي نحو وطني ...

— حسنا قلت يارايموند فانك شجاع حازم ولسوف تصيب فوزا مبينا

واندفع رايموند نحو المعسكر واعطافه تترنح من نشوة الحب والامل وكان صفد واقفا وراء ذينك الرجلين. فودع الاعرابي وانصرف ولكنه قبل ان ينطلق قال لمحمد. ما بال هذا السيد فانا استغرب مشيته

— كان فيما مضى رازحا تحت عبء السنين نظيري فقلت له كلمة واحدة فعادت اليه شبيبته . وقد علمت بالملاحظة ان هؤلاء الفرنساويين نساء في مواقف الحب وليوث في مواقف القتال .

في غار النمر

١٠

وكان بارسفال وصفد مختبئين بين آجام قردانه في ليلة حالكة الاهاب وقد مضى على مكثهما في ذلك المكان ساعة من الزمان فعيل صبر بارسفال ومل الانتظار وقال اذا طالت مدة انتظارنا اخفق مسعانا لان القمر لا يلبث ان يطلع ... فقال له البحار . اصغ وكان صوت خفيف اتيا من النهر كأنه حفيف الريح بين الاشجار . فقال بارسفال . ان الخونة قد خدعونا ونصبوا لنا كمينا

وكان هذا الفكر قد طرق مخيلة بارسفال قبل سواه ولكن جأشه سكن عند رؤيته صفد ساكتا آمنا . فقال صفد . ان رجلا ولا مراء يصعد النهر بزورق وارجح انه محمد وهو يفتش عنا وهانذا اسعى بنفسي لاتحقق هذا الامر

وسار زحفا على بطنه بين الادغال تاركا بارسفال وحده وواضعا يده على

ديك غدارته وهو يقول في نفسه . واذا اراد هذان الرجلان الايقاع بي .

واقام في مكانه متهيئا للدفاع عن نفسه ولكن نفسه لم تكن شديدة القلق لان ذينك الرجلين كانا يبديان لمنذ اسبوع من الزمان شواهد عديدة على اخلاصهما له

وسمع حفيفا بين الادغال فالتفت ورأى صفد عائدا ووراءه شبح وقال مناديا . « يامحمد » وقد تولاه الخجل لاساءته الظن باخلاص ذلك الاعرابي الشيخ

ونظر محمد الى بارسفال فابصره لابسا ثياب بدوي من سكان البادية ولم يكن احد يشك في كونه من اهل ذلك الاقليم . واما صفد فلم يكن محتاجا الى التنكر لانه كان لابسا ثيابا سورية . فقال رايموند . انت آتٍ في زورق وهذا يدلني على انك تحديت خطة نهائية وان خطتي لم يكن المسير عليها ممكنا

— اليك المنهاج الذي توخيت اتباعه ويمكنك نبذه اذا لم يرقك فبعد هنيهة من الزمان اي عند طلوع القمر يصبح دخولك المدينة متعذرا ان بمفاجأة احد الخفراء لك وان بتسلقك السور تحت ضوء القمر . وقد استأجرت مركبا في المرفأ مدعيا باني اريد ان اجيء الى السفينة الانكليزية بتاجرين ينتظرهما القائد الانكليزي وحينئذ دخلت النهر وقاسيت مشقة عظمى لاني لا احسن التجذيف . . .

— ولكن ماذا نفعل بذينك التاجرين

— انا نقذف بهما الى البحر وناخذكما بدلا منهما . . . وصفد يأتي معنا فالبحر وطنه

وقال رايموند · لا يحسن بنا ان نقتل ذينك الرجلين

— سنرى ما يقضي علينا فعله بهما

— اذهب معكما بكل سرور

وسار محمد ووراءه رفيقاه ولما وصلوا الى النهر وجدوا الزورق مربوطا بشجرة عند الضفة وفيه رجلان ينتظران وهما متجلببان بردائيهما · وكانا الرجلين اللذين تكلم عنهما الاعرابي فنظر بارسفال اليه والجزع بالغ منه · فقال له محمد · مهلا ياصاح

ودخل الزورق ورفع الجلبابين عن مناكب الشبحين الجامدين والقى في الماء الواحد تلو الاخر ذينك الشبحين الصامتين وقال · هما مصنوعان من الخشب · وناول رايموند وصفد الجلبابين المتجلبب بهما الشخصان الخشبيان · فتعجبا من دهاء ذلك الاعرابي · ثم سار بهم الزورق في عرض البحر ولما اقتربوا من المدينة قال محمد لرايموند · نصعد كلانا الى عكاء واما صفد فيبقى في الزورق وينتظرك ليعود بك من حيث اتيت · واذا لقينا خفراء اتراكا وسألونا عن هويتنا فانا اجيبهم على اسئلتهم وان لقينا جنودا انكليزا فانت تجاوبهم بالافرنسية لان كثيرين من مساعدينا في لبنان يتكلمون بلغتك بلهجة تعرفها ويجب عليك ان تقلدها

— الا يوجد نظام خاص للمحافظين على السور

—لا ادري ونحن سنقتفي اثرهم في المرفأ الى البرج الحديدي الذي ترمي مدافعكم قنابلها عليه · فقال رايموند · ان هذا الامر قد تقرر

وصمت منذ تلك الدقيقة فتمثلت له شبيبته وكل ما لقيه من غابر ايامه من المكافحات والمعاكسات وتراءى له ان الساعة التي اوشكت ان تدنو كانت

من اجمل ساعات حياته . فكان مغرراً بنفسه بذهابه الى غار الـد اعدائـه لاكتشاف سره . ثم اغرق فكره في محاسن وردة وجمالها الفتان . فهي وان صارت قريبة منه الان فقـد اصبحت بعيدة جدا عنه . ولم يكن خائفا من التجربـة التي كانت بالامس توهي صروح عزائمه لانه ادرك برباطة جأش وشدة صريمة انه لا يوجد شيء في هذا العالم يستطيع ان يقف في وجه تتميم واجباته الجندية . ولم يكن الان يهمه سوى امر واحد وهو ان يسرع بعـد دخوله مدينة عكاء مهرولا الى مضرب بونابرت ويدله على الثغرة التي يمكنه توجيه قوته اليها في الحصار

وكان القمر يرتفع من وراء جبل الكرمل ويلقي اشعته على المدينة والمرفأ والدخان يصعد في المدينـة من بعض انحائها حيث كان الخفراء قائمين على الحراسة . وكانت عينا بارسفال تجولان في ذلك المشهد كله فتعظم اهميته عنده بافتكاره انه بواسطته يحتمل ان يستولي في الغد الفرنساويون على تلك المدينة وينصبوا على اسوارهـا رايتهم المثلثة الالوان . ورأى ايضا نجمة صغيرة كان نورها الضارب الى الزرقة يضيء في جناح احسودبقصر الجزار وكان يحب ان يتصور انها تنير رقاد وردة الهني وتبسم عند تصوره الشعاع الحبي الذي ترسله الى زورقـه . وكان الزورق ينساب على متن الامواج سائرا بين السفن الانكليزيـة ميمما بكل جرأة سفينة القائد الاكبر . فانتهرهم احد الضباط من السفينة بلهجة عربية اعجمية فاجابه محمد قائلا . خرجنا للصيـد امتثالا لامر مولانا الجزار

— الا يخاف الجزار ان يصطاد بشباكه الجثث التي قطع رؤوسها هذا الصباح

فارتعشت اوصال بارسفال عند سماعه كلام الضابط الانكليزي وتراءى له ان بقعا من الدم الفرنساوي تتسع دوائرها على ضوء القمر في البحر

وعند دنوهم من موخر السفينة « تيزه » سمعوا محاورة بلهجة شديدة فقد كان عند القائد مدعوون الى متن مركبه يتناولون العشاء بهناء وغبطة فاستاء بارسفال كل الاستياء من تلك الحال لان الجنود المحاصرين كانوا في اسوأ حال وكان كل شيء ينقصهم حتى ان الماء كانوا ينا ولونه بالكيل ٠

ومر بارسفا لورفيقاه بجانب السفينة فسمعوا جلبة اصوات المدعوين وقهقهة ضحكهم واحاديثهم وكان القائد سدني سميث يقول لفيليبو ٠ ان شئت الشرب معنا على انحار الفرنساويين فانك ولامراء لا ترفض الاشتراك معي بالشرب على انكسار القائد بونابرت

فقال الخائن بصوت جعل بارسفال ينتفض من شدة الحنق ٠ اخطأت ياحضرة القائد فانا لا اتمنى انكساره البتة ولكن موته ٠٠٠ فليس الامران متساويين تجاه وطني ٠٠٠

— حين يسقط اسيرا في ايدينا وينقل الى متن سفينتي الا تظن انه يصبح ميتا كأنه قد قتل بالفعل

— بلى فان سقوطه اسيرا في ايديكم لاقبح من موته ولذلك فانا اتمنى من صميم فوءادي ان اراه ناشبا في حبائل اسركم

وشرب فيليبو الخمرة وكسر الكأس ورماها في البحر وصمتوا عن الكلام هنيهة من الزمان كأن ريح بغض شديدة هبت عليهم فجمدت شفاهم عن التكلم فسمى محمد فيليبو لبارسفال فقال هذا الاخير انه شقي ٠ ولكن الا ترى في حنقه وخيانته عقابا عظيما له

ولما بعدا قليــلا اوقفهما زورق تركي فتلفظ محمد باسمه امامهم برباطة جأش ولبث سائرا فقال احدهم ٠هذارامي مراد

ـــ نعم وابنه عمر يماثله في اجادة الرماية

وكانوا يضربون المثل بهما في حسن الرماية فكان للكلام الذي سمعه محمد وقع اليم في فؤاده ولكنه افتكراته كان في وسعه ان يفعل لاجل عمر نفس الشيء الذي يجريه لاجل رايموندولذلك خف قليلا عبء الكآبة عن منكبيه

وخرجوا الى البر في احدى زوايا المرفأ دون ان يلقوا ادنى مقاومة وجعل صفد يهتم بتهيئة الزورق للعودة به بسرعة وتمدد فيه كمن يريــد النوم وكان يدري ما يجب عليه اجراءه عندمفاجأة العدو بامر لا تحمد عقباه ٠ وتوغل رفيقاه في تيــه من الشوارع الضيقة يكثر فيها مرور الناس وكان وجودهما فيها كثير الخطر عليهما ولكنهما لم يترددا في شيء وظلا سائرين لا يلويان على شيء وكان تسليم الاعرابي للقضاء والقدر شديد التأثير على رايموند الذي كان ينعم النظر في الطريق الذي يمر به ويفحصه جيدا لكي تتسنى له العودة به

ووصلا الى مكان جمعت فيه عجلات عديدة ومدافع كثيرة قديمة العهد لــم تكن تصلح للاستعمــال واستحكامات جعلت هناك بامر فيليبو وجاء اليهما رجال من العسس الانكليزي فتفرسوا فيهما ليتبيناهما ٠وكانت سحنة بارسفال التي اثرت فيها شمس تلــك الاقاليم والتجارب المختلفة التي المّت به ملائمة لذلك الرداء العربي المتجلبب به واضطر الى مجاوبة الانكليزي على اسئلته باللغة الافرنسية بلهجة لم يتمكن هذا من فهمها ولكن اسماء الجزار ومراد

ومنصور ورباطة جأش ذينك الرجلين سكنت خاطره من جهتهما فتركهما يمران امنين

وقال محمد · ان الاتراك لايجولون كثيرا في الليل ولكن هذه العادة غريبة الفها حلفاءونا وحين نصعد الى السور تكتنفنا مصاعب اشد واجسم فحينئذ دعني اجاوب على الاسئلة التي تلقى علي

— وان هم خاطبوني

— يجب ان يظن الجميع انك ابني عمر واذا لك عدت هذه الليلة من يافا

— ذلك يمكن ان يتم اذا لم نلتق بمراد

— فحينئذ ينفضح امرنا ولااعود اجد لي بدا من الايقاع به والاسراع بالفرار

وكان رايموند يفكر في المهمة المندوب اليها فقال · لا يمكنني مع ولاءتك على هذا الامر فان الخدعة في مثل هذا الموقف اجدى لنا من سواها معه على شريطة ان لا يكون قد رأى وجهي ··· ولا يمكن وضع الامر الذي تقصد اليه موضع الاجراء لا حين اناديك قائلا · لقد قضي الامر فلم يجبه محمد بشيء بل وضع يده على قبضة سيفه والتفت الى مدخل الشارع المؤدي الى الاستحكامات · ولحسن حظهم كان قد حدث امر لم يكن بالحسبان جعل القوم يحتشدون في الزقاق فان بعض الجدران المبنية لصيانة الزقاق من غوائل قنابل الاعداء تداعت وسدت الطريق · وجاء رجال الجزار وشرعوا يرفعون الحجارة ليعيدوا المرور في الزقاق الى حالته الاولى · وبينما هم على تلك الحال واذا برايموند يقول لمحمد بصوت منخفض · انظر الى هذا المملوك القادم الينا ···

— انا اعرفه فهذا عبدالله احد نواب مراد . والافضل لنا ان لا تقع عينه علينا

وسارا امام المنازل لكن ثوب محمد لم يحجبه عن نظر عبدالله . فقال له هذا الاخير . يامحمد تعال وساعدني لمعاقبة هؤلاء اللئام

— لا يمكنني تلبية امرك الان فانا سائر الى السور للتفتيش عن صوانة بندقيتي التي فقدتها هذا المساء لما كنت ارمي المسيحيين

— ولكنك لا تقدر ان تجدها فالظلام دامس

— اعلم اين اضعتها

— ومن هو هذا البربري الذي يصحبك

— هذا ابني عمر

فقال له عبدالله مدهوشا لمعرفته ما كان من مقتل عمر . هذا الامر مستحيل

فقال الاعرابي وهو يتسلق السور بسرعة اعود اليك بعد هنيهة من الزمان فداخلت عبدالله ريبة في كلام محمد وتصرفه وجعل يناجي نفسه قائلا . هذا الشاب عمر يظهر مرة اخرى بعد قتله وغرقه . وهو يسير على السور بسرعة الارنب في مكان خال من الناس لأشغل له فيه . . . وقد بان لي ان اطواره غريبة اليوم . . . فرصاصته كانت تخطىء الفرنساويين الذين رماهم على مسافة قريبة . . . وما عدا ذلك ففي الامر خدعة من الجزار الهابة في صدره ريح الحسد فهأنذا اذهب الى مراد لاوقفه على حقيقة الحال

ومضى عبدالله مهرولا الى القصر المنتشر فوقه لواء السكون . وكان رايموند وهو يسير وراء الاعرابي يفحص الاسوار بسرعة وتدقيق وقد شعر بحرج موقفهما في ذلك المكان . وشعر رايموند ببهجة عظيمة تفيض من فؤاده عند

رؤيته بجلاء ووضوح في ضوء القمر مجموع تحصينات واستحكامات عكاء فادرك حالا الخطأ الذي كانوا يرتكبونه في محاصرة المدينة . ولما وصل الى البرج الحديدي المبنية قاعدته على الصخر بناء متينا علم سبب عجز قنابل المدافع ان تثلمه في بضع ساعات . فقال لمحمد متوسلا سربنا الا تنظر اناسا يمشون على السور حاملين مصابيح ومشاعل ... لقد كشف امرنا وعمدوا الى اللحاق بنا

— فلنذهب ولكن الا يمكننا اختصار الطريق بوثوبنا من هنا الى الخندق اسفل السور

— ذلك امر مستحيل . انظر الى عمق الخندق ...

والحق يقال ان علو ذلك السور كان ثلاثين قدما ولم يكن ممكنا الوثوب الى الخندق دون ان يستهدفا لرصاص بنادق الاعداء ودون ان تدق عنقاهما . وللحال قال رايموند . هيا بنا الى المرفأ . وقبل مزايلته لذلك الموضع القى نظره على استحكامات فيليبو الجاحد مؤملا انه في الغد سيصيرها اثرا بعد عين

ونزلا في المدينة وكان وراءهما عند طرف الطريق جمهور غفير من الناس يعدو خلفهما فابصره الحراس الاتراك قادما وقد بلغ منهم الاضطراب والقلق .

فقال رايموند . ان هؤلاء البله لا يعلمون ان ذلك الجمهور يطارد شخصين وقعت عليهما الظنة وقد كان الاولى بهم توقيفهما ريثما تنجلي لهم الحقيقة

فراقه صفاء ذهنه وشعر بانه جعل الاعرابي يعتقد بافضليته . وكان

انتقال محمد من البادية الى المدنية قدافقده خدعته فلم يعد يفتكر الا بالهرب ولولا رباطة جأش بارسفال وتمكنه من تجنب العسس لكان نشب هو ومحمد في اوهاق الاسر · فقال محمد بقلق يزيد شيئا فشيئا · انهم يقتفون اثرنا

— اصبت يامحمد ولكن كل شيء يتعلق على جوابك على هـذا السوءال وهو · من يقتفي اثرنا ··· فـاذا كان المقتفون لاثرنـا عبدالله والانكيزي فلا سبيل لخوفنا ···

— ليس من الحكمة ان ننتظرها هنا لنعلم من يقتفي اثرنا

— ولماذا ··· فنحن على جانبي الطريق من جهة ثلاثة شوارع وجميعها تفضي بنا الى المرفأ وسوف نرى ذوينا على ضوء النـار الموقـدة على البرج الحديدي يمرون امامنـا ويمكننا ان نعرف قائدهم

ولبث محمد وهو خجل من اظهاره الخوف ينتظر وعينـاه شاخصتان الى الفصيلة التي كانت تتجسس في ناحية السور · ولما صار الجنود الى المكان المنتشر فيه ضوء تلك النار عرفا الضابط الذي كان يقودهم وللحال صاحا بصوت يشف عن قلق شديد · مراد

اقتفاء الاثر

١١

ولما علم مراد من عبدالله ما كان قد حدث مما يثير الظنون من ربضتها قطب حاجبيه وتجلد لكظم غيظه قائلا · ان محمدا الاحمق هذا اصبح شديد الخطر علينا ولم يعد لنا بد من التملص منه بغير تردد ··· ويحضرني امور

كثيرة اجراها وهي مما يدعو الى ايقاظ الشكوك • فان مجيئه الفجائي الى عكاء واصراره الدائم على ذكر اسم عمر امامي واخطاءه عمدا الفرنساويين الذين يطلق عليهم النار

— لقد وضح الامر فمن الممكن ان يكون سليله عمر قد نجا باعجوبة وعاد • • •

— ان هذا الامر ضرب من المحال فقد رميته برصاصة اصابت جبينه وقد غرق امام عيني • • •

— وهل وجد الاعرابي جثة ولده

— تخامرني ريبة في هذا الامر • • • ولا يبعد ان يكون احد النوتيين قد تكلم عما جرى • • • واظنه ذلك الرجل الذي نجا سباحة ولم اتمكن من اصابته • • • وهو يحسن السباحة ويدور في خلدي انه وصل الى الشاطئ واخبر هذا الاعرابي بكل ما كان • • • وعندي ان عمر الموهوم ليس سوى صفد ولسوف نرى فتتجلى لنا الحقيقة ولا تمضي ساعة من الزمان حتى يقع ذانك الرجلان في ايدينا

واصدر اوامره الى المراكز المتعددة وسد كل الطرق المؤدية الى المرفأ دون ان يفكر في وجوب تفقد الزوارق ثم انه قال لعبدالله الذي جمع اليه المماليك • فلنصعد الان الى البرج الحديدي

— الا يجول في خاطرك انهما رجلان من رجال الباشا فوض اليهما سرا تجسس اعمالنا

— انا موقن ان احمد باشا الملقب حقا بالجزار يستطيع ان يحالف سرا بونابرت الظافر ويفاوض المحاصرين • وسينجلي لنا هذا الامر عند مشاهدتنا

هيئته حين نبئه بنحر جاسوسيه ... وللحال اسرعوا بمطاردة ذينك الرجلين وكانوا قد وصلوا الى السور ...

وكان بارسفال وهو رابط الجأش يفكر في خطة ينتهجها فقال لمحمد .
سر انت في الشارع الى جهة اليمين وانا سير في الشارع الى جهة اليسار ومن منا يصل الى الزورق قبل الاخر يقيم على حبل انتظاره الى ان يصل رجال مراد الى الرصيف . فقال له الاعرابي وماذا نفعل بعد ذلك

— انـك تسرع الى مصب نهر قردانه في الناحية الضاربة فيها طلائع الجنود الفرنساويـة وتعرفهم بشخصك بتعريفهم باسمك ... فيأخذونك الى محل اركان الحرب حيث تجد القائد الاكبر فقل له وحده . ان بارسفال اسير وقد اوصاني بان احمل اليكم هذه الكلمات وهي ان تهجروا محاصرة البرج الحديدي وتدكوا ناحية السور الشمالية وتهجموا بدون تأخر

— فهمت كل ما تبتغيه

— هلم بنا نسرع الى المرفأ

وسار كل منهما الى الناحية التي اتفقا عليها قاصدين الى البحر .. ولم يخطر رايموند خمسين خطوة حتى وقف عند روءيته امامه عند اسفل الشارع صفا مـن الحراب والبنادق تسد الطريق فانتكص على اعقابه خلسة وعاد الى مدخل الشارع والتقى بمحمد فقال له هذا . وهل الطريق مسدودة

— بقي لدينا الطريق الثالث وهو الاطول فان نحن الفيناه مسدوداً وجب علينا المرور به عنوة ... تعال واتبعني

وعاد الى استئناف المسير وهو واجم وكانت الطريق كثيرة التعاريج تحيط بها منازل عاليـة وابتدأ القمر يحتجب بالغيوم ثم يطلع مرة بعد مرة

ففكر رايموند في نفسه قائلا . ان هذا النسيم اللطيف يساعد على الوصول الى عرض البحر

ولما صارا الى اطراف الشارع ابصرا المرفأ واوشكا ان ينجوا لان الطريق كان مفتوحا في وجهيما ولم يبق امامهما سوى دورة واحدة وانحدار قصير المسافة لينتهيا الى الميناء . ولما وصلا اليها استقبلا بعشرين عيارا ناريا واصوات عالية فتحدمت نار الحنق في فؤاد الضابط الفرنساوي وانتكص على اعقابه راجعا مع محمد وقال . انهم لا يحسنون الرماية فقد اطلقوا بنادقهم في الفضاء . وفي الوقت عينه حملت اليهما الريح صياح رجال مراد الذين كانوا يعدون وراءهما في الشوارع الثلاثة الانفة الذكر . وكانت المنافذ مسدودة فبحث الضابط والاعرابي في الجدران لعلهما يعثران فيها على مخبأ يتواريان فيه او زاوية يسندان اليها ظهريهما ليقاتلا الاعداء ويموتا في الجهاد . فقال بارسفال لا اشتهي شيئا الا الحصول على وقت كاف لقتل مراد قبل تصرم حبال حياتي

— اذا انت اخطأته بذلت المجهود للاثئار منه لنا ولعمر

ثم انهما امسكا بيديهما غدارتيهما ولبثا ينتظران وهما مدهوشان من السكون الذي ساد عند طرفي الشارع ولم يلبثا ان ادركا سبب ذلك الصمت عند سماعهما مراد يصيح قائلا . تقدما ايها النذلان . واجابه مملوك . ان اول شخص يغرر بنفسه في هذا المأزق يلقى منيته . فقال مملوك اخر . يجب ان نفاجئهما من وراءهما لان الاعرابي اللئيم يجيد الرماية . فامرهم مراد قائلا . سيروا ورائي وكان كل من بارسفال ومحمد ينظر الى الاخر عند رؤيتهما عدوهما اتيا اليهما فالقيا في ذلك الامر سلوانا وتعزية على ما كان

يتوقعهما من العطب الوبيل ...

وسمعا الى الجهة اليمنى وقع اقدام رجال مراد وهم يسيرون وراء زعيمهم ولم يكن ادنى صوت يهددهما من الجهة اليسرى الى ناحية المرفأ لان رماة الاتراك كانوا كامنين لهما يترصدون بروزهما مرة اخرى . فسأل بارسفال محمدا وقد بلغ منه التبرم من طول الانتظار . اين نحن الان

— لا ارى شيئا لان الظلام حالك جدا ...

وبعد هنيهة من الزمان طلع القمر من وراء الغمام واثار فوق رأسيهما شجرة تين كبيرة نابتة من جدار يبلغ ارتفاعه نحو عشر اقدام . فقال بارسفال . نحن على مقربة من احدى الحدائق

— افي قصر الجزار وحده

— وما ادراك ما يصيبنا ...

— فلنتسلق الجدار

— لنسقط في يد الجزار

قال بارسفال هذا الكلام وشرع يتسنم الجدار مستعينا بما كان ناتئا فيه فقال له محمد اني وايم الحق اعرف بعض مخابيء في القصر فان نحن تمكنا من الوصول اليها لم تفتنا فرصة التعرف ...

وصعد محمد وراء بارسفال الذي بلغ شجرة التين وتعلق باغصانها ليصل الى اعلى الجدار ولبثا واقفين لا يبديان حراكا . فعرف محمد الحديقة الممتدة تحتها وسار بغية اكتشاف مخبأ يكونان فيه بمأمن من حلول المصائب والمـلمات الملمات غير محتفلين بالجلبة التي كانت تطبق الفضاء وغير مكترثين الانوار التي كانوا يسيرون بها في كل ناحية واقلق اطلاق النار في المرفأ جميع

الخواطر واثار جميع الافكار وصبر موقف محمد ورايموند حرجا . فهمس رايموند في اذن الاعرابي قائلا له . هلم بنا ننحدر

— لم يحن الوقت للانحدار ..

— فهمت ما تنويه .

وسمعا اصواتا تحتهما فعرفا مرادا ورجاله فكانوا يسيرون في الظلام الدامس فاراد محمد ان يطلق النار على مراد من بين اغصان التينة ويورده مورد الهلكة الا ان رايموند الذي لم يكن يفكر الا في الرجوع الى المعسكر الفرنساوي تصدى له وامسك يده ومر مراد في الشارع ووراءه اثنا عشر جنديا وجميعهم متحمسون كل التحمس للقبض على ذينك الاعرابيين . فقال بارسفال وهو يسير في حديقة الباشا . ان رصاص الكمين سيصيبهم ولا محالة ومن الممكن ان يهلك مراد معهم . فقال له محمد . تعال من هنا فالمعابر الاخرى مسدودة وهلم بنا نختبئ بين اشجار الرمان الكثيفة الاغصان الملتفة الاوراق وبعد ذلك نستطيع اجتياز فناء القصر للوصول الى الاسطبلات حيث نلقى انفاقا كثيرة تؤدي الى المرفا

فاختبأا في الظلام وهما مصغيان الى الاصوات الاتية من ناحية الشارع وبعد قليل من الحين سمعت اصوات البنادق وسمع صوت مراد يملاء الفضاء فقال الاعرابي اخطأوه هذه المرة ايضا فقال رايموند بقلق . انهم عائدون وبايديهم المشاعل ولا يبعد انهم يهتدون الى اثار تسلقنا جدار هذه الحديقة

والحق يقال ان مرادا كان يفتش في منازل الشوارع الثلاثة والريب يتجاذبه من كل جهة . فكانوا ينظرون المشاعل تذهب وتجيء على السطوح والشرفات . فاستفاد الهاربان من ذلك التفتيش وعمدا الى محو اثارهما

عن الجدار بيد ان ذلك الامر لم يجدهما نفعا لان خدام الجزار الذين انفذوا لاستطلاع طلع الامر اجتازوا الحديقة دون ان يبصرا الاعرابي ورفيقه وفتحوا الباب المؤدي الى الشارع . وللحال وقف مراد على العتبة وانتهر رجال الباشا قائلا لهم . اذهبوا الى سيدكم وقولوا له . انا لا نرضى ان يخدعنا الى هذه الدرجة … فان عمله هذا سيرقى الى مسامع المولى الاعظم في الاستانة وسيعلم ان الجزار يواري الجواسيس عن انظارنا . لقد ادخلتم الى هذا المكان رجلين فسلمونا اياهما حالا والا سيرت الى ابراهيم بك رسولا لا يسر الجزار بتسييره اليه . فتأثر رجال الجزار من كلام المملوك وعادوا الى سيدهم واخبروه بكل ما قاله لهم مراد فامر باحضار مراد اليه واستقبله بحنو مذل من شأنه ان يتملقه ويخضد شوكته في وقت واحد . فسأله بلطف ورقق . وبأي شيء تنحي علينا باللائمة . فصاح به المملوك قائلا مهدت سبيل الفرار في وجه هذين الرجلين اللذين لم يتمكنا من الهرب الابطرق قصرك . فابدى الجزار دهشا حقيقيا لم يبق في فؤاد مراد ادنى ريبة . فقص عليه هذا كل ما كان من حوادث تلك الليلة . فقال له الباشا . خذ حراسي وابحث في كل جوانب القصر وانا اهبك الرجلين المذكورين فافعل بهما ما يروقك فعله … واهب من يكتشف مقرهما مائة ذهب

فلم يضع مراد الوقت سدى واوعز الى بعض العسس ان يبحثوا عن اثار الفارين فتوفقوا في الاهتداء الى آثار صعودهما على الجدار ولكن تلك الآثار اختفت عن الابصار عند اسفل الجدار لاختلاطها بآثار اقدام اخرى . فصاح مراد قائلا . لا بأس من ذلك فانا سنقبض عليهما لا محالة … واريد اماكنهما حين افهمتم ذلك … فهما يخصاني

ولم يستطع رايموند ومحمدسماع هذه الكلمات لانهما اغتنما الفرصة من تلك الجلبة وتقدما في فناءالقصر سائرين الى الاسطبلات فوجدا الانفاق واصبحا بمأمن من الخطرولكنهما ما عتما ان ابصرا قضباناحديدية تسد تلك الانفاق . وكان كسر تلكالقضبان يقتضي عمل ليلة كاملة فقال رايموند لمحمد . الا يوجد مخرج اخر

— القصر في حركة عظيمة ...ولا اعرف سوى ملجأ واحد تستطيع الاختباء فيه واما انا فاني اذعن للقدروقد تعبت من مكافحة الدهر

—اصمت وافتكر ببغضك وانتقامك... واين هو هذا الملجأ

— تعال لاريكه

وسارا في دهليز ضيق حتى انتهياالى باب حديدي ففتحه محمدبمفتاح صغير واغلقه وراءهما فصارا الىحديقةصغيرة ينبعث منهما اريج الورود . وكان الماء الزلال يصب في فسقيةمنالمرمر الاسود . وكان منظر تلك الحديقة في ضوء القمر يحرك القريحةالشعرية في رأس رايموند ويخمد في جسمه لهيب الحمى . ويسكن فيهمتحركات العواطف المتأثرة .فسأل محمدا هامسا في اذنه كأنه يخاف انيوقظ بعض الارواح الراقدة من ذلك الفردوس السري. اين نحن الان؟ فاراه الاعرابي في الجهة المناوحة مرجة خضراء متناهية في الجمال وبيتا منالزجاج الملون يضيء فيه مصباح من البلور الصافي . فصاح رايموند بلهفةرجل وقف نفسه على حب الشبيبة والجمال . اهنا وردة .

لفظ بارسفال اسم حبيبته واطبقعينيه وهو يتمايل ولو لم يستند الى كتف محمد لكان هوى الى الارضفقال له الاعرابي . اصغ الي يارايموند

واعلم ان قصر الجزار تحيط به الخفراء من كل جهة ۰ ولسوف يبحثون منقبين في كل جوانبه ولكن هذا الامر يقتضي حينا من الزمان ولا يوجد فيه ملجأ يحترم مراد ابتذاله الا هذا المكان

فقال له رايموند وهو في غاية التأثر ۰ وكيف تريد ان ۰۰۰

فهز الاعرابي رأسه وقال ۰ دعني اكمل حديثي ولا تخف على مكتومات ضميرك ۰ فاذا كانت الفتاة المصرية تحبك انقذتك واذا كانت تكرهك قضي عليك بالهلاك معي غير اسف على هذه الدنيا

— ولكن واجباتي الجندية

— لا تغير شيئا مما هو مكتوب لجيوشكم ۰۰۰ وفضلا عن ذلك فستهرب في الليلة القادمة بطريقة اسهل من سواها

— وانت ماذا تفعل

— اعالج تتميم المهمة التي فوضتها الي

— وهل تؤمل النجاة

— ارجح هذا الامر ۰۰۰ فانا افتكر بجب مهجورة قريبة من هذا المكان ۰۰۰ وفوهتها مطمورة ببقايا بعض المدافع المحطمة ۰۰ فان من كان مثلي ضئيل الجسم يمكنه الاختباء فيها ۰۰ وسمعت اصوات الاتراك اتية للتفتيش في جهتهم ۰ فصاح رايموند بمحمد قائلا له ۰ اسرع ۰۰۰ وافتكر بنجاتك ۰۰

— لا اباشر شيئا لنجاتي قبل ان اعلم ۰۰۰ واذا لم تشاء الفتاة تخبئتك اثرت الموت معك ۰۰۰ فانا احبك كابني

فتأثر رايموند من كلام الاعرابي وضغط على يده بكلتا يديه ۰ فقال له محمد ۰ البث بجانب هذا الباب ولا تجتز الحديقة الا باشارة مني

ثم ان الاعرابي سار بجانب الجدران البيضاء ووقف امام نافذة وردة فقرع النافذة قرعا خفيفا في بدء الامر ولما لم يجبه احد قرعها قرعا عنيفا وهو يقول في نفسه . لا بد من ان تكون قد استيقظت على صوت اطلاق البنادق فما بالها لا تبدي حراكا . ولكن لم يمض عليها سوى بضع ثوان حتى فتحت النافذة الزجاجية وبدا منها شبح شفاف يحاكي حور الجنان وسمع صوت منخفض يقول من الطارق على نافذتي

— انا محمد ... افتحي حالا يامولاتي ...

فتحت وردة نافذتها وقالت له ماذا تريد فانا في غاية الخوف

— لا تخافي شيئا ياوردة ولكن الا تسمعين جلبة وضوضاء في المدينة وفي القصر

— بلى فبعيشك قل لي ما هي هذه الاصوات المخيفة فهل حدثت مذبحة ...

— ان ضابطا افرنسيا دخل المدينة فدروا به وتعقبوه ولا يلبثون ان يقبضوا عليه ويقتلوه . فقالت له بمرارة وقد اضطربت كل افكارها . اتقول ان ضابطا افرنسيا قد قتل ....

— اذا لم تمدي يدك لمساعدته قتلوه ولا محالة

— وما هو شأني في امره

— ان غرفتك هي المكان الوحيد الذي لا يجسر مراد على التفتيش فيه

— بالله ... وهل مراد .... ويحا له من تعيس ... ولكنني لا يمكنني ان ادخل نصرانيا الى غرفتي . أانت مجنون .....

— اترفضين ذلك ولو كنت مديونة بحياتك لهذا الشخص ....

ــ آه ٠٠٠ فهل هو ٠٠٠

ثم انها اطرقت برأسها الى الارض وقالت لا ٠ لا٠ لا يمكنني ذلــك ولاسيما لانه هو ٠٠٠

ــ بناء عليه فهو من المقضى عليهم بالهلاك

ــ اين هو

ــ على مقربــة منا وهو ينتظر اشارة مني ٠٠٠ فها انذا ذاهب اليــه لاوعز اليه بالانصراف٠

ــ مهلا يامحمد ٠٠٠ انك تطعن قلبي برمح العذاب ٠٠٠ لا استطيع ٠٠٠ لا اريد ٠٠٠ قالت هذا وجعلت تنتحب ٠ فقال الاعرابي ٠ لو كان منصور هنا لكان ينقذه

فاقفلت وردة نافذتها دون ان تجيبه بشيء فقال محمد في نفسه ٠ ستفتحها عن قريب ٠ثم انه اشار الى رايموند بالدنو منه وقال له ٠ اطرق هذا الباب فتفتح لك ٠ فكاد رايموند يجن من شدة الفرح ٠ وللحال دنا من الباب وطرقه ٠٠٠ ولم يتمكن من التفوه بكلمة واحدة تدل على شكره للاعرابي قبل ان ابتعد عنه هذا ولكنه قال هذه الكلمات المتقطعة ٠ اعلم ٠٠٠ في المسكر ٠٠٠ بونابرت ٠٠٠ لينكبوا عن البرج ٠٠٠ السور الداخلي والهجوم حالا ٠٠٠ هذا كل شيء ٠٠٠ ومن الممكن ان اموت هنا

وتوارى محمد عن الانظار وسمع بارسفال الباب الصغير الحديدي يفتح ويقفل ولم يكن ادنى خطر معجــل يتهدده ومع ذلك فان كل اوصالــه كانت ترتعد ٠ فاعاد الطرق بجبانــة ونادى بصوت منخفض ٠ ياوردة ٠ فسمع من وراء الباب صوت تنهيد دل على كفاح عنيف فاض فرح شديد

من قلب رايموند ونسي كل شيء ماعدا حبه لوردة ولم يكن يفتكر الا بعينيها النجلاوين وجمالها الفتان

وكانت الجلبة تزداد فوق السور ومراد يزيد تلك الضوضاء اشتدادا بما كان يقذفه من السباب واللعنات . فوصل الى مقر الفتاة والحنق ملء قلبه وقد كاد يجن من احباط مسعاه . وصاح بصوت عظيم سمعه بارسفال ووردة . قفوا هنا يارجالي فانا اريد دخول هذا المكان . ياسعيد اعطني المفتاح

وكانت مخاوف الاعرابي كادت تتحقق فانه لم يبق بدون تفتيش الا حديقة الفتاة المصرية . وكان مراد موقنا باكتشاف الاعرابي ورفيقه السري فيها . فقال لسعيد . ياسعيد هل كان مع محمد مفتاح لهذه الحديقة

— نعم ياسيدي

— سنقبض عليه ولا محالة

وسمع صرف المفتاح في الباب . . . وكان رايموند واقفا امام باب وردة المقفل فقال لها بصوت المودع . ياوردة . . . اني احبك وها اننا اموت

فعلى الفور فتح الباب وصاح مراد بصوت الحنق والظفر ودخل الحديقة التي كان ضوء القمر يملاءها وبعد التفتيش لم يتمكن من العثور على احد . ولم يعد مصباح الفتاة المصرية يضيء من وراء نافذتها ورأى باب الحريم موصدا باحكام فانه فتح لرايموند فدخله واغلقه بلطف

النفق

١٢

وبينما صفد نائم في الزورق وهو يغط لاستغراقه في الكرى استيقظ بغتة عند سماعه اصوات العيارات النارية فادرك للحال ان رفيقيه كانا في خطر عظيم وتهيا لمد ساعد المساعدة اليهما دون ان يغادر الزورق الذي كان يجب عليهم الاجتماع فيه قائلا . لا بد لهما من المجيء الى هذا المكان ان هما تمكنا من النجاة من جميع الورطات .

وكانت الجماهير تحتشد على المرفأ فزاد اضطراب صفد عند رؤيته تلك الحال فانضم الى البحارة والحمالين على المرفأ فالفاهم يتساءلون عن سبب الحركة والاضطراب في المدينة .

وبعد قليل من الحين جرى اسم عمر ومحمد على الالسنة . فقال السوري في نفسه . ان امر الاعرابي قد انكشف ولكن ما معنى اسم عمر فهل قام من بين الاموات

وظن ان تنكر رايموند جعل الناس يجهلون حقيقة هويته فهو ولا مراء الشخص الذي كانوا يزعمون انه ابن محمد المتوفي

ومر مراد بجانبه ومعه رجاله فتوارى وراء اشخاص مجتمعين في تلك الناحية وسمع المملوك يقول للنوبه . ان رفيق محمد لا يدعى عمر ولكن صفد

فامتقع وجه صفد وكاد فؤاده ينزو من صدره من شدة الخوف وحينئذ فكر في ان يلقي بنفسه الى البحر ويسبح ناحيا سفينة انكليزية ان هو لم

يتمكن مـن الوصول الى مصب نهرقردانه . وقال . غدا سيعرفني مراد ولذلك لا بد لي من الهرب قبل انقضاء هذا الليل لانني لا استطيع ان اجدفي هذه المدينة المجهولة ملجأ امينا . وقال مملوك كان مارا بجانبه وذاهبا لاحضار نجدة . انهما نظرا في قصر الجزار . فقال احد السوريين . ذهبا من تلقاء نفسهما ليقدما ذاتهما ضحية للجزار

فكاد قلب صفد ينخلع عند سماعه ذلك الكلام وقال في نفسه . اذا هما لم يعودا الى هذا المكان بعد ساعتين حللت مرساة زورقي وعدت مسرعـا الى العسكر الفرنساوي لاخبر بكل ماجرى

وكان صفد متوهما ان بونابرت سينسف الاسوار ويهجم هجوما هائلا لانقاذ ذينك الرجلين لاعتقـاده ان مقدرة السلطان الكبير لا تحـد ولا تحصر . وكان صفد قد عاد الى زورقه لاعتقاده انه يكون له أ من من سواه وتوارى فيه مختبئا بالاردية ومقاعد المجذفين . فجذبه التيار الى ناحيـة يقابلها منفذ لناحية تجري منها اقذار المدينة الى البحر . ففكر صفد ان يلجأ الى تلك القناة مؤملا انه لا يأتي احد للتفتيش عنه في ذلك المكان ومن هناك اصغى ليتبين ما كان يجري في ذلك الليل البهيم ...

ولما افترق محمد عن رايموند القى عمامته على رأسه وخلع الثياب التي كان الفرسان يلبسونها وسار في فناء القصر مجتازا كوخا حقيرا مهجورا والفى طريقا ضيقا بين جدران الحدائق والاشجار النابتة فيها . ففكر في نفسه قليلا من الزمان قائلا . ان انا بقيت هنا ... فلا يستطيع احد ان يهتدي الى هذا المخبأ

ولكنه تذكر ان سارقا وجد في ذلك المكان في الاسبوع السابق وقد

اثخن جراحا وسمر على خشبة فمات عليهـا . ومن الممكن ان يخطر على بالهم اعادة التفتيش في ذلك المكان . ولكن يجب علي ان اكشف البلاطة والبئر اللتين ابصرتهمـا تحت انقاض استحكامات الحرب

ووجد مشقة عظمى للسير بين تلك الاماكن المحفوفة بالمخاطر وتلك الفخاخ المنصوبة وخشي من ان يكون خياله على الجدار في ضوء القمر سببا لكشف مقره وقـد اطلقت عيارات نارية الى الناحية التي كان فيها دون ان تصيبه . وللحال تألفت عصابـة وجعلت تقتص اثره ولم يمض مـدة طويلة حتى احتشد جميع الذين كانوا يبـن شجيرات الورد وتسلق نافـذة واختبأ في احد اهراء الحنطة . وحدث انه سقط في معلف فرس ارتاعت منه وجعلت تصهل صهيلا جاء على اثره مروضو الخيل ليتبينوا سبب ذلك الصهيل . ولكن محمدا اسرع قبل دخولهـم الى الاختبـاء بين اكياس الشعير وانحدر الى الشارع وسقط عليه كثير من الجبص والآجر المحطم .. فقال في نفسه وهو واهي القوى وقد أمل ان مرادا يستهدف لآخر رصاصة يطلقها من بندقيته ، ساموت في هذا المكان

وكان يسمع مضطهديه يتنادون ولم يعد المملوك يصدر اوامره بل ترك التنقيب لرجاله وكان محمد قد فطن من الآثار لنفسه من مراد فتجلد واراد النهوض للفرار ولكنه عاد فهوى الى الحضيض واهي القوى وجعل يفحص الارض فعثر على حلقة من الحديد في حجر فانتعشت اماله حين تحقق ان تلك الحلقـة كانت في الحجر الذي يسد فوهة البئر التي كان قد شاهدها في النهار . فعالج رفع الحجر ولكنه القى صعوبة شديدة وسمع صوتا يقول . تعالوا الى هنا فانـا سامع حركة بين الانقاض

فاكسب القنوط ذلك الاعرابي الشيخ قوة مضاعفة حتى انه تمكن من اقتلاع ذلك الحجر فبانت تحته فوهة بئر ضيقة تنبعث منها روائح منتنة فارتد الى الوراء منقبض الصدر وسمع اصوات السفاحين تملأ الفضاء على مقربة منه ولكنه لم ير له بدا من النزول الى تلك البئر وارجع الحجر الى الفوهة فوق رأسه بعد ان قلبه ظهرا لبطن وجعل الحلقة الى الداخل مستعينا بها على التعلق واسند رجليه الى جدران البئر ولبث حينا من الزمان وهو يشعر بالم شديد وسمع وقع اقدام رجال مراد والجزار فوق رأسه على الحجر المقلوب ولكنهم لم ينظروا في الظلام ذلك الحجر مقلوبا وفضلا عن ذلك فانه كان صغيرا بنوع ان امر قلبه لم يكن ليخطر على بالهم البتة ولاسيما لان الحلقة الحديدية لم تكن تنظرفيه · فمروا وهم يصخبون ويشتمون ويطلقون النار ليوهموا مواليهم انهم سائرون على اثر الفارين او ليقذفوا الذعر على فؤاد الهاربين ويهدموا صرح عزيمتهما

وكان محمد يستنشق في ملجأه هواء فاسدا يكاد يخنقه · وبينا هو يهم برفع الحجر فوق رأسه سمع وقع اقدام خفيفة فعلم ان قد كان هناك جنودا اشد تحذرا من سواهم يجولون في الليل وهم صامتون ليفاجئوه ويقبضوا عليه · فصمم على الانتظار في مكانه بغير حراك ما دام استنشاق ذلك الهواء الفاسد مستطاعا · ولما مس جدار البئر برجله علم انها تتسع كلما سار فيها الى اسفل ·· فتقوس مستندا الى ركبتيه ومعصميه وترك الحلقة الحديدية ونزل نحو ست اقدام وهو يقول في نفسه منتفضا من الفرح · ان الهواء هنا انقى منه ويمكن استنشاقه فان انا نزلت ···

وكان كلما ابتعد عن فوهة البئر يجد راحة في استنشاقه الهواء ويجد

البئر تتسع شيئا فشيئا ويقل فساد الهواء وتخف تلك الرائحة الكريهة فتوهم ان هنالك مجرى هوائيا منعشا يجدد هواء تلك الانفاق فصمم على الاستمرار على الانحدار غير مبال باتساع البئر الذي كان يصير النزول صعبا ومحفوفا بالخطر في ذلك الظلام الحالك . وحدث انه وضع قدمه على شيء ناتىء في داخل البئر فللحال خشع تحت قدمه وهوى محمد الى اسفل في فضاء البئر فعقب سقوطه قرقعة وصوت ورشاش ماء لان محمدا سقط من علو عشرين قدما الى مستنقع تحت الارض ولكنه لم يتأثر من ذلك السقوط لان عمق المياه وما كان يخالطها من الوحول خففا تأثير سقوطه فجعل محمد يختبط في الماء ويسبح على مهله وهو خائف من ان يكون احد قد سمع القرقعة التي تلت سقوطه ولكن لم يسمع ادنى صوت على وجه الارض فوق راسه فتنفس الصعداء وجعل يعالج التملص من ذلك المأزق الذي توغل فيه . . . فدار حول ذلك المستنقع ولم يكن الماء يبلغ الى ما فوق حقوبه ولبث محمد يتجسس ذلك الصخر الكبير فعلم ان هنالك اربعة اقنية تصب حاملة اقذار المدينة وسائرة بها الى مكان اخر يبعد عن الموضع الذي كان هو فيه ومنه كان هواء البحر يأتي اليه . فسار محمد لساعته في القناة التي تجتمع فيها الاقنية الاربع وبعد مشقة كبرى تمكن من اجتياز نحو مائة متر فالفى القناة تميل الى جهة اخرى بزاوية مستقيمة ولم يكن هناك سوى ممر ضيق يستطيع الرجل بعناء عظيم المرور به . ولما عبره محمد تحقق انه نجا . وكان القمر يرسل اشعته المضطربة على البحر والنسيم العليل يملاء رئتيه فينعش جسمه . . . وجعل يسبح ميمما المنفذ حيث كان مركب ملقيا مراسيه في الماء وكانت الاصوات قد انقطعت على المرفأ . فامل محمد انهم عدلوا عن

مطاردته لكنه لم يسترسل الى ذلك الفكر بل بقي متحـذرا وكاد يمس المركب المذكور واذا برأس برز من زورق وجعـل يصغي الى الحركة الاتية من جهـة المنفـذ الانف الذكر فللحال عرفه محمد ونادى قائـلا . ياصفد . فاجابه صفد دون ان يبدي ادنى دهش . كنت انتظرك ولكن اين اليوزباشي

— لقد نجا ايضا ... وهو يبتغي منـا ان نذهب الى المعسكر وننتظره فيه ... فهل يمكننا الذهاب

— بعد مدة قصيرة يتوارى القمر تحت الغيوم فحينئذ نستطيع الخروج من المرفأ دون ان يدري بنا احد

— الافضل لنا ان ننتظر

— وماذا جرى لمراد

فابدى محمد حركة مبهمة وغاص في لجة من الافكار بعيدة القرار ..

وكان مراد يحرق الارم وهو صـامت لا ينبس ببنت لسان وقـد اعتوره ذعر قليل من جراء ما حدث تلك الليلة فان الفارين قد اختفيا كانهما شبحان وكان شديد الرغبة للوقوف على حقيقة اثارهما ليتمكن من تدارك هول يقض المضجع ويقلق الخاطر . ولمـا تحقق ان حديقة وردة كانت خالية من الناس جرى في وهمـه وانتجت لـه فكرته ان يخفي في التنقيب في حجرة الفتاة ولكنـه علم ان تلك المعاملـة الخارجة عن حد الاعتدال تنكر عليه وردة ما دامت حياتها معقودة باوتار البقاء ولذلك اضطر الى التسبب باسباب الحيلة والخداع . فدنا من نافذة وردة وناداها باسمها بكل لطف فاجابت قائلة من يناديني

فقا للها · انـــا مراد · ففتحت النافذة وبرزت مبرقعة تحت ضوء القمر الضئيل وقالت له بلهجة التعنيف · لماذا لم تعد تحترم رقاد النساء ··· الا يكفي ان القوم يذبحون في الازقـــة وينهبون تحت جنـــح الـــدجى حتى يحملك اهواءوك التي لا يرويها الا الدم على حرماني من لذة النوم

فقال لها مراد معتذرا · عفوا يا وردة فقد اتيت لاسأل هل اصابك مكروه فان لصوصا فروا ··· وظننتهم استعاذوا بحديقتـــك ··· الـــم تسمعي ادنى حركة او صوت في الحديقة ···

— لم اسمع شيئا ··· وفضلاً عن ذلك فلو كنت قد سمعت شيئا لما تأخرت عن اطلاق النـــار على من يتجرأ على الاطلاع على حديقتي اتيا اليها بمقاصد سيئـــة فان منصورا ابقى عندي اسلحة

وكانت تفوه بهـــذه الكلمات وصوتها يرتجف من فرط الحنق ولو لم تكن هي تفرق بين توجيه هـــذا التهديد الى مراد او الى سواه فأثر به سكونها الدال على جرأتها وتعجب من ثبات جنانها المقرون بمحاسنها الفتانة وشعر بان ظنونه الاخيرة قد تبددت كما يتبدد الدخان من وجه الريح ·

فقال لها بلطف · يجب علي يا وردة ان احذرك من محمد الاعرابي فانـــه خائن وجاسوس لاعدائنا

— اتقول ان الاعرابي خائن ··· ولماذا عينته خادما لي

— كان نائلا ثقة منصور ··· وظننت انني اسر قلبك ···

— شكرا لك على عنايتك بي ولكنني اوءكد لك ان ذلك الرجل الشيخ لم يكن لي ذا فائدة فان سعيدا يكفي وحده لحراسة بي

— هاءنذا ارسله لينام على عتبة مخدعك واوصيه بان يتركك ترقدين

غدا النهار برمته لاحتياجك الى الراحة بعد الرعب ... اودعك ياوردة موءملا ان تكون احلامك لذيذة

فاحنت رأسها له دون ان تجيبه بكلمة ثم انها اغلقت نافذتها وتنفست الصعداء وغادر مراد ذلك المكان وهو يسأل نفسه قائلا . الى اين اذهب الان ياترى

ثم انه جمع اليه نفرا من الخدام من ذوي الدهاء والكتمان وسار بهم على الاثر الذي لقيه في حدائق القصر . ولبث كل الليل يطوف في الازقة والشوارع باحثا على نور المصابيح في كل زاوية من الجدران القديمة العهد وكان متحققا كل التحقق انه قطع في الحين الملائم على ذينك الرجلين خطا الرجوع الى المرفأ ولذلك لم يفتكر في الانحدار اليه . ولما اوشك الفجر ان يتبلج ادى به المطاف الى رصيف المرفأ فسأل كل البحارة وعد كل الزوارق غير مغفل اصغر طوف منها وجاء مأمور الميناء وقال له ينقص اصغر الزوارق . فسأله مراد قائلا . واين كان مربوطا . فذهب الى المكان الحلقة التي كان مشدودا اليها فنظر هنالك منفذ القناة وللحال عرف المكان الذي هربا منه وقال . قد هربا من هذا الموضع

وامر فريقا من البحارة بان يفحصوا القناة ويجدوا المنفذ الموءدي بها الى المدينة ففعلوا وقالوا له . في هذه القناة مصاعب جسيمة تدل على ان للذين مرا بها جرأة تفوق جرأة البشر

فقال مراد . لا تتعجبوا من هذا الامر كثيرا فالجرأة التي تذكرونها ليست سوى قوة الارادة بالرغبة في الحياة ... وانا اعد الاسيرين الاولين اللذين يقعان في ايدينا باطلاق سراحهما ومنحهما الحياة ان هما اكتشفا النفق

المؤدي الى قصر الجزار

ـــ هذا الامر من رابع المستحيلات

ولما طلع الفجر نزل المملوك الى البحر سائراً الى اقرب سفينة انكليزية. وبناء على طلبه سأل الربان البحارة الذين كانوا قائمين على الحراسة في الليل عما شاهدوه فقال احدهم . اذكر انني عنــد غياب القمر سمعت حركة زورق فيه شبحان ... وارجح ان الليل كان قد تناصف في تلك الساعة فمر ذلك الزورق في مكان لا يصل اليه الصوت من عندنا

ــ كان يجب ان تخبر بوجوده

ــ لا نستطيع ان نخبر عن كل الزوارق التي تخرج ليلا للصيد تحت حمايتنا

فقال مراد . ساصدر اوامر شديدة من الان فصاعدا لا يخرج احد من الميناء بدون رخصة .

ــ وفضلا عن ذلك فان هذا الزورق هو نفس الزورق الذي رأيناه قبــل خروجه بساعتين داخلا بثلاثة اشخاص

فعادت الى مراد كل مخاوفه وقال . وهل كان فيه ثلاثة اشخاص

ــ انا متحقق ذلــك ورفاقي يؤيدون صحة مقالي

قال هذا وسمى رفاقه المذكورين فنادوهم وجاءوا فذكروا شهادتــه . فقال مراد . ان في المدينــة شخصــا يخوننا ... فلا بد لنا من اكتشاف مقره فيها ... وعاد مراد الى السور فسمع صوت السور يوقظ الفرنسويين وقد بدأت الشمس تخرج من خدرها ... وكان صفاء الفلك يمكن الناظر من وراء الهواء الشفاف من رؤية تلك المناظر بكل وضوح . فعاد المملوك الى

تبينها . وللحال هاجت فيه عواطف الحنق عند روءيته جماعة واقفة على الاكمة القريبة فصاح ساخطا . هذان هما

وكان قد عرف من بين اركان الحرب محمدا وصفد وهما يشيران بايديهما الى ناحية السور الداخلي والى البرج الحديدي . وحينئذ لم يعد عند مراد ادنى ريبة بفرارهما . ولكنه تذكر ما كان قد اكتشفه صباحا والتفت بغتة الى الخفراء ظانا انه من الممكن ان يكون بينهم شريك ذينك الرجلين ... فلم ينظر سوى اشخاص مسلمين دائرين وجوههم الى جهة مكة والى جهة مطلع الشمس وساجدين على الجدران بكل خشوع لان ساعة الصلاة كانت قد دنت ... وكان الموءذن ينادي من اعلى المآذنة داعيا الناس الى اقامة الصلاة

غرام وردة

١٣

وصار بارسفال بمأمن من الخطر فاقفل الباب الضيق وشعر بان قلبه يخفق حتى يكاد ينزو من صدره وبات اضعف من ولد بعد ما اصابه من تلك التجربة الشديدة . وان الخطر الذي نجا منه بعد عنه حتى انه لم يعد يتذكره ومع ذلك فلم يكن بينه وبين الموت سوى سماكة ذلك الباب الذي لايمكنه مقاومة مراد وشراسته . وشعر في الظلمة بوضع يد صغيرة مرتجفة على يده فاطاع دون ان يفوه بكلمة واحدة وسار وراءها الى مخدع صغير فاجلسته على مقعد واسع ارخت ستائر سميكة عليه ثم توارت عنه بسرعة . فحملق

بارسفال بعينيه في الظلمة دون ان يستطيع ان يبصر شيئا وسمعت اذنه المصغية لادنى حركة صوت فتح النافذة ومحاورة بين الفتاة المصرية والمملوك · واصغى بارسفال الى ذلك الصوت وقد تضعضعت قواه وتبسم بحزن مرّ لان كذب وردة ملاء فوءاده حنقا وشكرا في وقت واحد وكان يقاسي عذابا ويسر سرورا عظيما بوجوده ذاته على كثب من تلك الفتاة التي كان يحبها محبة ما وراءها من مزيد···وكانت تعرف كيف تقصي عنها مرادا وبعبارة اخرى كيف تطرده طردا··· واراد بارسفال ان يتمثل بحب وردة ويماثلها فيه عند مشاهدته ماشاهده فيها من المخاطرة بالنفس لانقاذه ثم ان النافذة اوصدت وسمع اقدام المملوك في الحديقة المنتشر فيها لواء السكينة واقفل الباب الحديدي ·وسمع رايموند ايضا صوت المفتاح الذي اداره سعيد مرتين في القفل وكان الاسير يأمل ان يقضي ساعات بل اياما في محل لا تناله فيه المكاره ·ولم يعد يجري في باله البتة ذكر المعسكر الفرنساوي فان واجبات الجندي زالت من ذهنه كأنها لم تكن شيئا مذكورا وانحصرت حياته ضمن جدران الكرنك وفي طي حديقة وردة وحجرتها فقد كانت تملاء ذينك الفردوسين سعادة وغبطة لا حد لهما· وكان رايموند نظير اولئك الابطال المأسورين في حدائق ارميد المسورة بطلاسم من السحر · فنسي كل شيء ما عدا الفرح العظيم الذي كان يشعر به في تلك الساعة وتبسم تلك الفتاة العجيبة

وكان قد مضى على رجوع مراد بضع دقائق ولم يعد يسمع ادنى صوت في مثوى تلك الفتاة ففكر بارسفال في نفسه وهو خائف · من الممكن ان تكون قد هربت

ثم انــه نفض عنه غبار الخمول ونهض وسار على غير هدى يتلمس رياش المخدع في الظلام وكان يستنشق روائح عطرية تنعش الفواد . ولمس الستائر وازاحها فدخله نور لطيف مكنه من روءية معبوده وهيكله . فكانت واقفة الى جانب المصباح الذي اوقدته خائفة ولم تكن تجسر على التحرك وكانت عيناها شاخصتين الى الباب كأنها تنتظر شيئا والهلع بالغ منها فمازجه سرور سري بوجودها على مقربة من ذلك الشخص الذي انقذته ولما ابصرته يخطو نحوها نادته بخشونة قائلة له . لاتدن مني

ولكنها لم تكد تفوه بهذا الكلام حتى اطرقت برأسها الى الارض وعلت حمرة الخجل خديها فكأن هيئتهــا كذبت مقالها . فتوسل اليها رايموند قائلا . ياوردة . لا تخافي مني شيئا . فلست سوى عبدك واسيرك ... فان شئت ذهابي ذهبت لساعتي . وان هم قتلوني فلست مباليا بشيء . لقد نظرتك ولم يعد لي مطمع بالحياة

ولما سمعته يتلفظ بحب الموت انتفضت انتفاض عصفور بلله القطر . وابدت بحركاتها انها تنكر عليه ذلك الكلام ولكنها وقفت عند هذا الحد من الاعتراض ولما خطا بارسفال نحوها خطوة واحدة اضطربت من ام رأسها الى اخمص قدمها ولكن دون ان تحجم الى الوراء . وبقي يدنو منهــا وهي شاخصة اليه بدهش حتى فتح ذراعيه وضمها الى صدره وهي كأنها قطعة من الجماد . فقال لها بصوت خافت وحنون . ياحبيبتي . وكان صوته اشبه شيء بالصوت الذي يحلفون بــه اليمين . وكانت عيناه المضطرمتان تفتش عن عينيها اللتين كانتا تتحولان عنــه . فحمل بين ذراعيه وردة الى ذلــك المخدع السري الــذي كانت ستائره السميكة تحجبها عن الابصار وتخفي

صوتيهما ولم يكن النور يصل اليهما فيه الا ضئيلا وعن بعد فيبقى وجه الفتاة المبرقع بالخجل مستورا في الظلام عن انظار الفرنساوي المخيفة من فرط تهيجه

وثاب الروع شيئا فشيئا الى تلك الفتاة المضطربة وصارت تجيب الشاب على الاسئلة التي كان يلقيها عليها . وتمكنت من اخفاء ما لم يكن يحسن بها ان توقفه عليه . ففي بدء الامر كانا يتحدثان عن امور تافهة ويتبادلان عبارات الشكر والتجمل . ولكنهما كلما كانا يتحققان انهما اصبحا وحدهما في ذلك الليل البهيم الطويل الذوائب كانا يفتحان بالتناوب قلبيهما ويستودع كل منهما الآخر اسرار حبه . وبدأ رايموند يكشف بغير حياء ما كان يجول في قلبه من العواطف نحو تلك الفتاة البارعة الجمال . فقال لها . منذ اليوم الذي رأيتك فيه في مصر العليا فقدت كل لذة في هذه الدنيا ما عدا الافتكار بك فانك حللت في كل جارحة من جوارحي واصبحت مقلتاك النجلاوان مرسومتين في قلبي وباتتا تنيرانه بانوارهما المتألقة ولم اعد ارى حوالي سوى شخصك المحبوب . وكنت خائفا خوفا عظيما من نسيانك اياي ......

فقالت له الفتاة المصرية بحرية ضمير وسذاجة . لم اكن لاستطيع نسيانك . ولكنها ما عتمت ان هبت في صدرها نسمات الحياء فحاولت ان تموه عليه الحقيقة بقولها له . لانقاذك اياي من الهلاك

— وانت في نوبتك تنقذيني من الموت هذا المساء . فكل منا لا عليه ولا له . وبناء عليه فلا ينبغي لك من الا ن فصاعدا ان تذكري لي شيئا عن معرفتك الجميل نحوي ... فلا ابتغي الا الحصول على محبتك

— لا استطيع بغضك لانك كريم الاخلاق وحديد الفؤاد ولين الضريبة وانا شاعرة بانك تحب في ولدا فقدت امها ولم يبق لها من عضد تستند اليه

وكانت تريد ان تؤخر التفوه بالكلمة التي اوشكت ان تحرق شفتيها بان تفتح باب حديث اخر فقصت عليه حريق منزلها وهربها الى سوريا وما عاملها به منصور من تلك المعاملة الدالة على شرف نصابه وكرم سجاياه ولم تذكر له عمدا ما كان مراد يبديه لها من شدة التعلق بها وما كانت تشعر به من الحزن الجسيم منذ تخرم والدها لتيقنها بان اخبارها اياه بتلك الامور تدله على تعلق شؤونها بذلك المملوك وكانت تشعر في قلبها بان مثل تلك الاخبار تلقي الكآبة في قلب رايموند

وكان رايموند يسمع حديثها وهو ثمل بخمرة حبها وملتذ بذلك الصوت الرخيم لانه كان يحبها محبة ما وراءها من مزيد تجعله يضحي لاجلها كل ما عز وهان في هذه الدنيا . وكان لاجل تلك الفتاة يستطيع ان ينكر وطنه واله وكل شيء . وقد برحته الافكار السامية التي حملته على المجيء الى افريقيا بصفة رسول المدنية والحرية والثورة الفرنساوية وحل محلها حب وردة الذي ملاء قلبه وفكره وكل جوارحه واصبح رقا لها تلذ له العبودية فقال لها بصوت مضطرب . ياوردة انك لا تذكرين لي السبب الحقيقي لشفقتك ... قولي لي بانك لم تنقذيني الا لانك تحبينني .. واكملي معروفك بذكر السبب الوحيد الذي يلذ لي ذكره

فقالت له الفتاة باضطراب . لا ادري معنى كلامك فانت تتكلم بلغة الشعراء ولهجة رواة القصص في السهرات ... فليس في بلادك للكلمات الفخمة التي تلفظها معنى بليغ ولكن عندنا تتعلق عليها الحياة او الموت

ــ ولكنني .لا افصح عن شيءاخر ياوردة ولا احلم بغير ما تحلمين

ــ وهل افتكرت بكل ما يفرق بيننا

ــ لا شيء يفرق بيننا سوى كلام فارغ واوهام خالية من المعنى · لقد اتيت لانقاذك ولا هم لي سوى امر واحد اؤمل الفوز بــه · الا وهو ان اجعلك تحبينني وان اقف عليك كل حياتي

ــ انت لا تعرف شيئا عن حياتي

ــ اعرف اني احبك · ولا حاجة الى معرفة غير ذلك ··· ولو كنتِ تحبينني لمــا كان ماضي اعز مني لديك ···

ــ اخطأ سهــم ظنــك المرمى فلست سوى امرأة

ــ ان صورة الشرق تتمثل لي بكل ما فيها من محبة الذات والغلظة ··· فهو يسترق نفوسكن ــ ويحصر حياتكن ويجور على اقدس عواطفكن

ــ ان الرجال في كل مكان هم لمتسلطون ···

ــ اخطأت ياوردة فانك لــم تفصحي عما في جنانك وانــا اعتبر تشبيهك اباي بالمماليك ذويك مما اراه خافضا لقدري ومنتقصا لشأني فهم ذوو اخلاق فظــة وعلى جانب عظيم من الاستبداد · وقد قلت لك ذات مساء انا اتينا الى العالم القديم مبتغين ان نتحفه بالعظمة والجودة والحريــة · وسنبذل الجهد لتحقيق هذه المقاصــد النبيلة ···

وبلغ منه التحمس الى تذكره المهمة التي جاء الى تلك الاصقاع لاجلها ولكنه لــم يلبث ان خضدت شوكة فصاحته عند رؤيته ذاته في ذلــك الموضع الذي ترف فوقه فيه اجنحــة الحب والذي القي فيه بين يديه ذانك الجمــال واللطف وتلــك الشبيبة · وجعلت وردة تقص عليه ما جرى لها

في حداثتها في مصر العليا والمخاوف التي قذفتها على فؤادها الانقاض المقدسة وتخلل كلامها حكايات وهمية جعلته مسببا ولكنها كانت من حين الى اخر توجز فيه تاركة فترات اختيارية ٠ وامتقع وجهها لسماعها اصواتا ساقت اليها الذعر واغاني ملاءت قلبها بهجة واغتباطا فاضطرمت يداها وتفرست بعينين ذابلتين بعيني رايموند المدهوش بجمالها الفتان المتوهم ذاته في الفردوس...

فسقيا لها من دقيقة خلوا فيها وتعانقا وقلب كل منهما يشعر بخفقان قلب الاخر في ذلك الليل البهيم وسكرا من خمرة الغرام ٠ وزالت من وجههما كل الموانع وتحطمت قيود الشرائع البشرية ولم يكن ثمت سوى شخصين في عنفوان الشباب افرغ عليهما الحسن حلة جميلة نقية وخادنتهما الشهامة والصدق فغلى الدم في عروقهما وعادت اليهما همتهما ونسيا كل ما جرى لهما في ابان الفراق وقال رايموند متنهدا ٠ ياحبيبتي...يازوجتي ....

وقالت وردة وهي تقبل شفتي رايموند قبلة يصلح ان نسميها ختم الخطبة بينهما ٠ وانا احبك ....

وكانت ليلة من الليالي الشرقية التي تضطرب فيها الطبيعة نفسها ويضيء كل شيء تحت الكواكب حيث يتوهم الانسان ان السماء انحنت فوق الارض وكادت تعانقها

وكان في الميناء زورق ينساب كالافعى على صفح الامواج الساكنة ...والمشاعل تسير على اسوار المدينة وابراجها والسكون سائد في قصر الجزار الغائص سكانه في لجة الكرى وكل منهم يرى رؤيا الاخر ٠ فهنا يحلم انه يفتك بالاعداء فتكا ذريعا وذاك يرى في نومه انه يجمع الاسلاب ويحشد من جراء ذلك ثروة طائلة وذلك يحلم انه يثأر لنفسه من عدوه وغيره يرى في

الحلم غير ذلك من الاشياء ولكن كان في احدى زوايا ذلك القصر بعيدا عن الضمائر الناغلة والمطامع السافلة مخدع يثوي فيه شخصان لم يكن يخفق قلبهما الا بالحب الطاهر الصريح

السقوط في الفخ

١٦

وعـاد مراد الى القصر واجما كئيبا كأنه على احر من جمر الغضى وشوك القتاد وهو يتوعد محمدا وصفدبان بجعلهما عبرة رادعة ويتهدد بنوع خاص شريكهما الثالث السري الذي بقي مختبئا في المدينة بعد ان سهل لهما سبيل الفرار

ودخل مراد على الباشا وقص عليه الحوادث التي جرت في الليل فسمى له الجزار ضباط القصر الذين يشتبه بامانتهم ويخشى من علاقاتهـم مع العدو . واقاما اناسا يرصدون سراحر كاتهم وسكناتهم وعمدا الى الطريقة نفسها مع خـدام القصر وتوهما انه لا يمضي عليهما بضع ساعات حتى يدركا وطرهما

وانطلقا معا الى المرفأ ليتحققـا بنفسيهما عن المواضع التي يمكن بهـا الوصول اليه وبحثا عن مصب القاذورة ووجهتها وتسقطا البحارة عن ضمائرهم

فقال لهما بعض البحارة الانكليز ان الزورق الذي كان مرابطا هنا سار الى جهة حيفا وقد جرته مياه قردانه الى البحر ونحن ارجعنـاه الى مرساه . وامس صباحا استعاره محمد ليتنزه فيه في الميناء

فقال مراد . وهذا اثر الوحــل الاسود الممتزج بمواد فاسدة تركتهــا على الارض اقدام الشخصين الحافية وملابسهما الملطخة بالاقذار فانهما مرا في النفق وقد بقي علينا ان نعرف النقطة عينها التي دخلا منها . فقال الجزار وهو غير مبال . وعلى كل حال ارى ان هذا النفق المنبعثة منه الروائح الكريهة لا يتصل بقصري لانه يمتد الى جهة بعيدة في حدائقي ...

— ولكنه يدور على بعد مائة خطوة من هذا المكان وبزاوية قصيرة صاعدا تحت قصرك ... الا يوجد في عكاء مصوّر « خريطة » يبين انفاقها ودهاليزها تحت الارض ...

— ان جميع هذه الاوراق قد اعطيت للامير فيليبو ليستعملها عنــد مسيس الحاجة اليها

— هلم بنا نعيد النظر فيها

ولم يكرم فيليبو وفادة الجزار ومراد عليه لازعاجهما اياه في تأملاته فسألهما باهتمام قائلا . اتقولان ان ذينك الفارين فرنساويان

— لا ولكنهما مسلمان

فاختصر فيليبو زيارة الجزار ومراد له بقوله لهما . ان المصورات التي كانت لدي قــد فقدت مني ولا اذكر انهــا كانت تشير الى وجود انفاق ودهاليز تحت الارض . واظن ان افضل شيء في الاونة الحاضرة هو مراقبة كــل حركة تجري في المرفأ . وانا دار انه منذ عدة قرون حين احتل الفرسان الهيكليون مدينة عكا حفروا فيها معابر وانفــاق تحت الارض ولكن الميــاه دخلتها لما هدمت جدرانها وهذا يدلني على الطريق الذي سلكه الجاسوسان .

— الا تخاف من كشفها حقيقة حالتنا لاركان حرب الاعداء

— لا · الم تقل لي انهما ذهبا لفحص البرج الكبير · فكيف عرفا اهميته في الحصار ··· وهل غير الفرنساويون خطة حصارهم وحولوا اطلاق قذائفهم من البرج الى السور الداخلي ·

— لم يفعلوا شيئاً من ذلك حتى الان وكل ما اجروه هو انهم اوقفوا اطلاق القذائف بعد ان اطالوا النظر في فحص السور كأنهم ينوون ان يغيروا حركة البطاريات ولكنها عادت الى الرمي على المحل نفسه

لا مرية عندي في ان الجاسوسين الفارين على جانب عظيم من البسالة وثبات الجأش ولكنهما لا يعلمان شيئاً من فن الحصار نظير سواهما من بني وطنهما

قال فيليبو هذا الكلام وجعل يتبسم تبسما يدل على ما كان يثوي في فؤاده من الانتقام ثم اردف حديثه بالكلمات الاتية · واما الجاسوس الثالث فاني لا احفل به فهو ايضا تركي نظير رفيقيه يجهل حقيقة فن الحصار لانه لم يوعز اليهما بوجوب تغيير الخطة في الحصار ··· ما لم ···

— ماذا تقول

— ما لم تجتمع كلمة هؤلاء الفرنساويين الملاعين · وهذا لا ينافي الواقع بل بالعكس ··· ففي جيش الفرنساويين قد لعب الخلاف بين قائد المدفعية وقائد فرقة المهندسين · فهذا الاخير يعاكس تدابير كل رصفائه القواد وقد اراد دومارتين منذ اليوم الاول هدم السور الداخلي بيد ان اركان الحرب اقاموا عليه النكير وقالوا ان قواعد الحرب تقضي عليهم بوجوب اطلاق النار على البرج ··· واعلم ان الجاسوسين سيبذلان جهدهما على غير طائل في وصف هيئة استحكاماتنا الداخلية ولكن اركان الحرب

المذكورين سيصمون اذانهم عن سماع اصواتها ولا يأذنان للمدفعيــة التي كانت قد صممت على تغيير الخطــةالحربية ··· وانا اراهن على صحــة كلامي ··· ولم يعدُ مراد والجزاريسمعان لقوله ومع ذلك فان فيليبو تمكن من الاستدلال على كل المشهدالذي جرى صباحا في المجلس الحربي الفرنساوي على اثر مــا ابداه لهــم الاعرابي محمــد من التصريحات · ودار في خلدهم في بــدء الامر ان الاعرابي ورفيقه السوري خانا بارسفال واسلماه وجاءا يحملان لهم انباء كاذبة من لدنه · ولو لم يتدخل ماتورل في المسألة ويحقق لهم امانة ذينك الرجلين لكانوا ولا محالــة نصبوهما هدفــا للرصاص.

وبعد مفاوضات ومناقشات عديدة فاز اركان الحرب بمبادئهم مع ما كان يصحب الخطة التي توخوها من الفشل وذهب استطلاع رايمونــد على غير جدوى

وبقي لمراد بارقة امل وهو ان سعيدا يمكنه ان يتذكر شيئا مما يمكن مراد العودة الى الاثر الذي كان يقتصا ولذلك جعل يحفي في التنقيب عن الخصي · ولما اهتدى الى مقره وجده مضطربا مدهوشا ولم يجد صعوبة عظمى في تسقطه عن ضميره فان وردة كانت قد ساقت اليه قلقا شديدا من جهتها · هل كانت مريضة او مصابــة بــدا الماليخوليا ···· وهل كانت تريــد الموت جوعا ··· فانها كانت قد اغلقت بابهــا في وجه سعيــد وكانت تنتهره بغضب كلما كان يتوسل اليها ان تأذن له بالدخول لقضاء حاجاتها · وسألــه مراد عن محمد وصاحبيه المجهولين فلم يقع له سعيد غلــة · وبينا مراد يهم بالابتعاد عنه سمع منه هذه الكلمة · انها تكرهني وقد اخذت مني مفتاح

الجنينة

—فعلت هذا الامر عقابا لك على فتحك لي الباب هذه الليلة

— من الممكن ان يكون الامر كذلك

— ان هذه المتعجرفة تعاملني كأني لست حاصلا هنا على سلطة منصور الغائب ... فاذهب وقل لها اني اريد مشافهتها

— انها لا تفتح بابها

— نادها من وراء بابها وقل لها انها يجب عليها ان تفتح بابها حالا حبا بمصلحتها ...

ففرح الخصي من حل تلك المشكلة بتحويل فظاظة وردة وشراستها عنه الى غيره ويتسنى تقديم خدمته لها وقال . هاءنذا ماض اليها مسرعا

وقرع الباب مدة طويلة دون ان ينال منها جوابا ولما رضيت الفتاة المصرية بان تخاطبه من وراء بابها الموصد اوقفها على حقيقة مهمته . ففي فاتحة الامر ترددت ولكنها بعد ان تروت قليلا امرت الخصي باستقدام المملوك اليها

ولما دخل مراد وجدها في محل قليل النور مضطجعة على مقعدها وهي كأنها مضنكة تعبا . وكان لمعان عينيها يثبت حقيقة الحمى المصابة بها . وقد اضطرت الى احتمال تلك المعاملة العنيفة من المملوك لكي يمحو من وهمه اثر الريبة

فشعر مراد بان محاسنها الفتانة تسحره وجعل يعتذر عن اصراره بطلب الدخول عليها قائلا لها بلطف حقيقي . أأنت متوعكة المزاج ياوردة ..

— لا ولكن اطلاق البنادق في الليلة المنقضية حرمني لذة الرقاد ولذلك

صممت على النوم في هذا النهار مبتغية التعويض عما فقدته من الراحة

ــ أأنت تبتغين هذا الامر

ونظرت وردة الى مراد بعينين نجلاوين ذابلتين دون ان يطرف لها جفن امام نظره الدال على ارتيابه في صدق كلامها وقالت بلطف للخصي الذي كان يهم بترتيب مقصورتها . ياسعيد لا تدر هكذا امام عيني لانك تتعبني . فحين احتاجك ادعوك

وكانت لهجتها طبيعية ولم يكن صوتها مضطربا مع انها كانت في موقف حرج للغاية فرايموند كان واقفا وراءها تحجبه عن الابصار الستائر الملقاة على النافذة وكان اقل شيء يمكنه ان يبوح بسر وجوده في ذلك المكان

وشعر مراد بانه ذليل امام تلك الفتاة وتوهم انها تخاطب سعيدا في الظاهر وهي تعنيه في الحقيقة على حد المثل القائل . « اخاطبك ياجارة لكي تسمعي ياكنة » فاحتدمت نار الغضب في فوءاده وصمم على البقاء في غرفتها وقال لها وهو يلاحظ كل حركة من حركاتها . اريد ان اخاطبك عن محمد

فلم تبدِ ادنى حركة وقالت له وهي مشردة الافكار . واي علاقة لي بهذا الرجل . ولكنها عادت للحال وافتكرت في ما كان وراءها فانتصبت جالسة لتخفي اضطرابها وارتجاج الستائر وان نفس رايموند القريبة منها كانت توحي اليها السوءال الاتي الذي كان يهمها كثيرا وهو . هل قبضت عليه

ــ لا لانه فر هاربا بنفق

ــ والى اين ذهب

ــ ذهب الى معسكر الفرنسويين على متن زورق

فتبسمت تحت البرقع الذي كان يحجب وجهها لمعرفتها ان ذلك الكلام

يسر رايموند ثم انها جعلت تجيب مراد على اسئلته · والحق يقال انها لم تكن تعلم شيئاً عن محمد ولا عن علاقاته وانها لم تكن تكذب في ما كانت تفوه به

فسر المملوك مما شاهده فيها من ظل البهجة وابدى لها اهتماما عظيما بهـا ولكنها استاءت منه مخافــة ان تكون تلك المعاملة قد ساءت رايموند دافعة اياه على الوقوع على خصمه والايقاع به ···· وهناك الطامة الكبرى والبلية العظمى ··· وقد حدث امر ازال مخاوفهـا من جهة والقاها من الجهة الاخرى في ورطة يشق عليها التخلص منها· وتحرير الخبر ان بارسفال كان قـد ترك على المنضدة غدارته المحشوة ولما اختبأ وراء السجوف ابقاها على المنضدة مغطاة بطرف الطنفسة فبانت الغدارة فاضطرب مدهوشا من روءيته ذلك السلاح وقال لها وهو يطيل النظر فيه متظاهرا بعدم الاكتراث بــه · من اعطاك هذه الغدارة

— ان منصورا اعطانيها لادافع بها عن نفسي

ولم تتلجلج في مجاوبتــه لان خطارة موقفها اولتها شجاعة شديدة ·· وبعد صمت قليل قالت لمراد وهي تقرأ على جبينه ما كان يهب في صدره من عواطف الحنق · ان منصورا قد اكدلي انها غدارة رجل فرنساوي قتل في سديمان · فاحترز تقليبك اياها··· لانها محشوة

وجالت في رأس مراد افكار هائلة فباسرع من لمح البصر تمثلت له الايام التي قضاها في قصر الجزار وكان يعلم ان منصورا لم يعط الفتاة الا اسلحة عربية كثيرة الزخرف··· وكان هو قد انتقاها لها ··· فكيف وصلت هذه الغدارة الى يد الفتاة المصرية···وحينئذ تمثلت لديه كل حوادث الليلة وعرف

ان في غرفة وردة عدوا ولم يكن ادنى ريب يخامر ضميره في ذلك الامر لان تموجات القلى كانت تمتد من قلب الواحد منهما الى قلب الاخر ٠ فانطرحت وردة على مقعدها متمنية لو يسرع اليها عزرائيل مشمرا اردانه للقبض ٠ وقبض مراد بيده على غدارة الرجل الفرنسوي وناجى نفسه قائلا من من الثلاثة يجب علي ان اقتل ٠ هو ام هي ام انا ٠٠٠

وشعر بان وصمة الجريمة التي اتتها وردة قد علقت به ولم يلف نفسه قادرا على معاقبتها عليها لان محبته لها كانت اشد من الغيرة التي كانت قد ساورته ٠ واصبحت الحياة مكروهة لديه ودار في رأسه هذا الفكر وهو ٠ انه يراقبني ٠٠٠

وتجلد مراد متسلطا على نزق الشباب واضغاث احلامه وشراسة اخلاقه وبدا بمظهر رجل جديد ٠ وفي الوقت عينه ادرك عجزه عن اهلاك خصمه فان وردة كانت مستعدة لان تنهض وتحول بينه وبين شريك محمد وتعرض نفسها للقتل دفاعا عنه ٠ فحينئذ ترتفع اصوات العراك ويقوم جميع سكان قصر الجزار ليتبينوا حقيقة الامر ويعلم الجميع ان ذلك السلاح يدل على وجود رجل مسيحي في القصر ٠٠٠ ومعلوم ان مثل ذلك العدو كان مقتضيا عليه بالهلاك الا ان التقاليد الشريفة التي كان المماليك متقيدين بها كانت تقضي على مراد بان يبدأ بالفوز عليه بمكارم الاخلاق فقال لها بمنتهى الرصانة بلهجة قاض يصدر حكما ياوردة يجب علي الان ان اخبرك عن سبب مجيئي ٠ ان نسل ابراهيم حاكم ولاية سديمان الذي اغتاله العدو نسل منصور الجليل صديق شيخ بلدنا ومراد نائب الامير لا يمكن ان يدنسه جهارا جرم امرأة

وبدأ مراد مقالته بهذه المقدمة بعظمة حتى ان بارسفال الذي كان قد تهيأ للتدخل في الامر لبث جامداً في مكانه وناجى نفسه قائلا . كنت واهماً انه يظنني هنا

— قبل دخول الليل يأمر الجزار بالتفتيش في غرفنا غير مستثن غرفتك للوقوف على اثر ذلك الشخص الذي فر من بين ايدينا ...

وكان مراد يريد ان ينعته باقبح النعوت ولكنه تجلد لعلمه ان مهمتـه تقتضي الصمت في مثل ذلك الوقت وقال وقد كادت بنائق صبره تنفتق . اذكري انك ابنة ابراهيم ....

ثم انـه مضى وهو لا يربع على شيء ولا يبـالي باصوات المطـاردين المرتفعة وراءه وكانت وردة تضم الى صدرها رايموند مانعة اياه عن الاندفاع وراء مراد . لانه كان قد ادرك معنى تهديده . وكان مراد قد اخذ غـدارة خصمه ولمـا وصل الى الرواق وقف متردداً قبـل ان يجتاز العتبـة التي دنستها خيانة وردة وجعل يفكر فيما اذا كان يحسن بـه ان يرجع منقلبـا ليكتشف ذلك الظافر السري ....ولكنه قال . لا ينبغي لي ان ارجع لئلا يفور دمي ويدفعني الى قتله .

وعاد مراد فاخذ كل الاسلحة التي كان قد اعطاها للفتاة المصرية . وقد بدأ بفعله هـذا يتخطى حـدود الشهامة التي وضعتها له قوانين عترته

طارق

١٥

وكان مراد يزمجر كأنه وحش ضار فعبر الحديقة وهو يترنح من فرط الغيظ وقد نشرت على محياه ملاءة حمراء كانت تغشي بصره وبصيرته . وكان الدم يغلي في عروقه غليانا شديدا وهو يناجي نفسه قائلا . هما هنالك ورائي وهما ينظران الي ومع ذلك فانا اتركهما ليخلو لهما الجو . ووقف بغتة ونفسه ظمأى الى الدم وفرائصه ترتعد سخطا وحنقا . وقال . ان انتقامي منهما اصبح الان موءكدا ولذلك يحسن بي ان امهلهما لكي اجعل نزعهما طويل المدة وثقيل الوطأة عليهما

وكان سعيد ينتظره خلف الباب فنظر اليه مراد ونفرت نفسه منه وكان يريد ان يطفىء لهيب الغضب في فوءاده . وبينا سعيد يقفل الباب اهوى عليه مراد بسيفه باسرع من وميض البرق فاطاح رأسه عن منكبيه والقاه على الارض يتشحط بدمه وشعر مراد بان وقرا ثقيلا انزل عن عاتقه . وانحنى فوق وجه سعيد وقال متذكرا مهمته . كان قد اوشك ان يقف على حقيقة كل شيء فهكذا يهلك كل الذين يعرفون الحقائق . ولما ثاب اليه الروع جعل يعمل الروية في ذلك الحادث ويسأل نفسه قائلا . من هو ياترى شريكه . وجعل يقلب في ذهنه افتراضات شتى ويقول ان ذلك السلاح الفرنساوي الذي وجده في غرفة وردة لا يدل دلالة صريحة على جنسية ذلك الشخص الملعون فان تلك الغدارة كانت اقصر من الغدارات التركية

تسهل تخبئتها تحت الثياب وكان من الممكن ان توجد في غنيمة مملوك من المماليك احرزها من سلب قافلة او قتل جندي متأخر عن رفاقه ومن المحتمل ان يكون لاحد خدام ابراهيم ومنصور معرفة ببوردة وعلاقة معها . اجل ان هذا الامر يصعب حدوثه ولكنه ليس بمستحيل . ولا يبعد ان يكون سعيد واسطة بينهما ... بئس الغضب والعجلة ... اني عجلت في قتله ولقد كنت استطيع ان احمله على الاقرار بتعذيبي اياه تعذيبا مبرحا

ولم تكن تلك الاسباب جميعها تتقع غلته لانه كان قائما في وجدانه انه في حجرة ورده رجلا فرنساويا مختبئا بيد ان تلك الانسة المصرية لم تكن تعرف من المسيحيين سوى شخص واحد وهو ذلك اليوزباشي الجريء الذي خاطبها في مصر العليا وشغف بجمالها الرائع ... ومن الراجح ان يكون قد اوقفها في المعسكر حين كانت ذاهبة لتستقي ماء ونمّ لها باسرار حبه الفاسد ... لانها عادت الى البيت كثيرة الاضطراب ولذلك عمد مراد في ذلك الحين الى مغادرة مصر والمجيء ببوردة الى مكان تحول الصحاري الواسعة بينه وبين المكان النازل فيه ذلك الفرنساوي اللئيم . ولكن ذلك الشخص قتل في يافا حيث ساقته الاقدار الى ذلك المكان الذي اصمته فيه رصاصة من بندقية محمد . وكان مراد يقول في نفسه لو كان الاعرابي شريكا له لما كان قد قتله .. ومع ذلك فاليوزباشي لا يزال حيا يرزق . وما عتم مراد ان ضحك مقهقها وقال . لا ظل لهذا الوهم من الحقيقة لان اليوزباشي قد قتل حين اخبر صفد الاعرابي بمقتل ابنه وكان ذلك الامر داعيا لهما الى الانضمام في سلك الفرنساويين للاثار من مراد

وجعل مراد يشحذ ذهنه لعله يتذكر احدا من الضباط والجنود الذين

كانوا يحدقون به في اثناء اصدار ديزه الحكم عليه وكان قد ابصرهم ينظرون بشغف الى وجه وردة المحسور عنه اللثام فتذكر مراد هيئة غوران المملوءة من ماء الشباب وذكر ايضا انه رافق الفتاة ليلا حتى اوصلها الى البيت حيث كان هو على حبل انتظارها وهو كأنه على احر من الجمر ... ولكن كيف جاء الان الى عكاء مع الجيش المحاصر ... اجل ان اليوزباشي جاء الى ذلك الموضع ولو لم يقتل في يافا لما كان طيفه يزايل مخيلة مراد دقيقة واحدة وبعد هذه الافتراضات العديدة قال . لم يبق سوى رجالنا ورجال الجزار ومنصور ما لم يكن ذلك الضابط المخنث الوجه قد تسلل الى هذا المكان الذي سبقه اليه محمد وعليه فلا يمكن ان يكون الاعرابي قد تجسس احوالنا قبل ثلاثة ايام ....

وكان قد وصل الى هذه النتيجة المهيجة اكثر من سواها فانه حين كان امس ليلا يخاطب وردة كانت قد خلصت الفار وكان قريبا منها ولا مراء للمرة الاولى . وكانت وهدة الحزن والخجل المحفورة تحت قدميه تزيد عمقا .

ووجده عبدالله جالسا على جثة سعيد مستغرقا في افكاره حتى انه لم يشعر بمجيئه فقال له عبدالله وهو مبتهج بالخبر الذي يحمله اليه . يامولاي انا اصبنا البئر التي نجا بها ذانك الرجلان في الليلة الماضية وقد انطفأت في المياه الآجنة المشاعل التي انزلناها الى اسفل تلك البئر

وكان عبدالله يرتعد وهو يتكلم عن ذلك الطريق الذي سار فيه الهاربان واراد ان يذهب بمراد الى البئر وهو يتظاهر بانه لم ينتبه الى القتيل الذي كان دمه يسيل على الارض لان المملوك كان قد تعود غير مرة ان يعاقب

بمثل هذا العقاب عبدا عاصيا او جنديا خائنا

ورفع مراد عينيه الى عبدالله فرجع هذا الى الوراء مذعورا ومرتابا في وجود عقل مراد في رأسه وفي اخر الامر قال المملوك بصوت غريب · لا يهمني كثيرا هذا الامر فاذهب وسد البشر واجمع كل رجالنا وجئني بهم ··· واذا كانوا ينقصون احدا فتعال واخبرني عن اسمه

وادرك عبدالله ان الحادثة التي اخبره عنها لم تكن شيئا مذكورا بالنسبة الى ما كان ينتظر حدوثه · فاسرع لاجراء اوامر مراد · واتفق ان مملوكا كان غائبا ولم يكن احد يستطيع ان يهدي عبدالله الى مقره · فكانوا على الاسوار ام في المدينة ام في زورق من الزوارق··· ان ذلك الامر بقي مجهولا ولم يكن احد قد ابصره منذ مساء امس ذلك اليوم · ومضى عبدالله مهرولا الى مراد وقال له · ان كل فرساننا مجتمعون في فناء القصر ما عدا طارقا ولم يعلم احد له مقرا

وكان طارق جنديا شابا يحب منصور حبا شديدا وقد هذبه تهذيبا كاملا رفع منزلته عن اترابه · وكان الاتراك يعجبون بجمال صورته وصفاء ذهنه فلم يرتاب مراد ابدا في ان طارقا كان الشخص الذي خبأته وردة في حجرتها

واقام الجنود حول القصر في الجهة التي كانت وردة مقيمة فيها وجعل نطاقا من الخفراء حول الحديقة وحينئذ قال لرجاله · ان خائنين قد سهلا ليلا طريق الفرار في وجه محمد ورفيقه وقد قطعت رأس احدهما سعيد فبقي عليكم الان ان تطلقوا النار على طارق الخائن الثاني حين يبدو لانظاركم وها انذا ماض لانفره من الملجأ الذي لاذ به ··· واوصيكم وصية اخيرة

مانعا اياكم عن اقتفاء اثري مهما طرق اذانكم من الاصوات ...

فقال عبدالله معالجا ترقيق قلب مراد . ايامولاي ان طارقا شجاع ففي يأسه ....

— صه... لي وحدي الحق بمعاقبته ونصبه هدفا لرصاص بنادقكم

وظن مراد انه بتلك الذريعة يضلل الافكار عن كل ما من شأنه ان يكشف ذلك السر الفاضح وان الجزار نفسه الذي يجري كل الاعمال باسمه لا ينبغي له ان يعلم شيئا من ذلك الامر فان رجاله سيبطشون بطارق قبل ان يتكلم .... واما من جهة وردة فان قلبه كان مترددا في الكلام ولاسيما في ما يتعلق باجراء حكم من الاحكام بحقها . وبعد طموس اثر طارق الذي كان مراد يعتبره شريكا لها في الجرم يخبرها بواقع الحال

وبينا هو داخل الحديقة وحده فكر في انه لم يترك اسلحة لدى ذلك الشخص المجرم ولكنه لم يتأثر كثيرا من ذلك العمل الدال على جنوحه عن الطريقة المثلى المقضي على الفرسان تحديها لانه لم يكن ينتظر وضع حد لذلك الحادث بواسطة البراز بل كان يعتبر انه يجب عليه اجراء حكم عادل

ودخل تاركا الباب مفتوحا وراءه وهو يقول في نفسه . ياليت هذا الشقي يعمد الى الفرار فيصيب حيفه خارج هذه الحديقة وهو افضل شيء لي لنيل امنيتي

وجرى في فكره خاطر اوقفه بغتة فقال بصوت منخفض . واذا لحقته وردة .... تصديت لهما بالقوة . وفضلا عن ذلك فانه منذ عرف الشريك المزعوم شعر بحدوث امر لم يكن يعهده قبلا وهو ان تلك الانسة المصرية اصبحت تجاهه كغريبة وان سقوطها عن كرامتها ساءه جدا . وكان

ضربة شديدة على مجد عشرته · واي شيء يمنعه عن معاملتها باحتقار ...
ولماذا لا يعدها بانه ينسى كل شيء ان هي تركت عاشقها يهرب خفية دون
ان تثير الظنون ...

ولما وصل الى قدام الباب قال في نفسه · هل اقرعه

ولكنه افتكر انه يجب عليه ان يدع المجرم يتوهم ان له السلطة الاستبدادية التي لا مرد لها وصمم ان يمهد سبيل الفرار في وجهه · فصعد درجات الرخام تاركا المنفذ الوحيد مفتوحا لذلك المجرم ليهرب منه ودار حول زاوية البيت ووقف امام النافذة مناديا بصوت الامر · ياطارق

ولما علم رايموند انه اصبح على شفير الهلاك نظر الى وردة متبسما · فقالت الفتاة وهي تنتفض من الفرح الذي كان يملاء فوءادها بكل سكينة · سنموت معا

ولم يقم رايموند النكير على ما صحت عليه عزيمتها لانه لم يكن يلقي بابا اخر لنجاة وردة مفتوحا في وجهه · وهب انشبت المنية اظفارها فيه فان وردة لم تكن لتنجو من انتقام مراد ومع ذلك فقد تعجب من جراءة ذلك المملوك الفائقة الطبيعة وقال · ان هذا الرجل المتوحش يستطيع نظير القوم المتمدنين ان يتسلط على عواطف البغض الهائجة في فوءاده · ولعمر الحق ان دماثة اخلاقه وان تكن ناجمة عن التيه والخيلاء تقتضي نظم عقود الثناء على السلالة المنتمي اليها · فقالت وردة · لا يلبث ان يعود الينا متغيرا لافكار ·

— اظنك مخطئة في وهمك فلدينا وقت كاف ولا بد من انه يتخذ كل الذرائع لاخفاء تخرمنا لان كبرياءه توحي اليه انتظار الليل لقضاء عمله

وكانت وردة مطوقة عنق رايموند بيديها فقالت له · انك لا تعرفه ...

فلنمت ونحن على هذه الحال ···· اتريد ذلك ···· اقتلني ياحبيبي رايموند ···

— لم يبق لدي اسلحة

— ضمني الى صدرك واضغطعلي بكل قوتك ضغطا يزهق روحي

— سقيا لك من بنية ···

ثم انه نهض وعوامل القلق تتجاذبه وقال · ان محمدا في معسكرنا ولكن هل نجح ياترى في المهمة التي انتدبته اليها ····

وفتح رايموند النافذة واصغى فسمع اصوات المدافع الفرنساوية تنطلق من حين الى اخر بفترات مرتبة وقال بكآبة · ان البطارية لا تزال تطلق القذائف على البرج عينه ··· فاما ان يكون الاعرابي قد اساء القيام بمهمته واما ان يكونوا قد اصموا اذانهم عن سماع صوته

وكان يتأسف بنوع خاص على تصرم حبال حياته على غير طائل · وللحال هبت في صدره روح الجندية وانفت نفسه من الموت بدون نتيجة تذكر فقال بحزن عظيم بدلا من ان يعيش الواحد منا للاخر في هذه الدنيا سيجمعنا الموت

— اصبت فنحن الان في زاوية من القصر خالية من السكان تحف بها افنية تقيم بها الخفراء وحدائق تراقبنا فيها عيون مراد ولذلك يقضي علينا موقفنا بان نقصر افكارنا على الغبطة التي تبدو لنا في هذا الوقت الاخير

فضمها الى صدره ضمة تعتبر عما كان يجول في ذلك الصدر من عواطف الحب الشديد لها وقال لها ·

لا احب البتة ان تعيشي بعد موتي فانا اخاف···

ــ وماذا تخاف

ــ اخاف ان يصفح عنك مراد

ــ انت مخطىء في وهمك وكيف يمكنك ان تظن ...

ــ رأيت في عيني هذا الرجل يوارق حب شديد لك تلمع وراء غيوم غضبه

فقالت له وهي باقية مطوقة عنقه بكلتا يديها لا شيء عندي في هذه الدنيا يعادلك ... فانا زوجتك... الموت وحده يمكنه ان يجمعنا .... اجل انت مصيب فانا لا استطيع ان اراك تموت قبلي ولذلك فساستقبل الموت قبلك

ــ وكيف يكون ذلك

فقالت له متبسمة . انظر الى طريق النجاة

ــ ما هذا ... انها والله قنينة فيها سم زعاف

ــ اخذتها الليلة وسألجأ اليها عند مسيس الحاجة فانا احبك بكل جوارحي

فنظر اليها كما ينظر العابد الى المعبود ولكنه الفاها ثابتة في عزمها فلم يعالج الاحتجاج على عزمها لتيقنه انه يبقى عقيما لان شبيبة وردة كانت قد انقضت ودخلت معه في طور يصح ان نسميه طور الاستعداد للموت . وعليه فان انتحارها على مهل كان اجدى وانفع لها لان العقاب الذي يعده المماليك لمثلها كان عنيفا جدا ...

ولم يكن ادنى شيء يكدر وحدتهما فثملا من خمرة الغرام وارتفعت افكارهما عن الامور الارضية محلقة في جو الخيال . وبينا هما على تلك الحال

واذا بوقع قـدمي مراد في الخارج يطرق اذانهمـا فقالت وردة بصوت ضئيل · جاء مراد

فقال رايموند وهو متهيئ للموت · فليأت ··· ولكنه وحده ··· ويحا له من رجل غدار ···

—لا اريد ابـدا ان يعذبـك فستشرب ما يبقى في قنينتي وترقد الى جانبي حين تسمعه يعالج الباب ليفتحه

فراق بارسفال كلام وردة وقال لها متنهدا · ياوردة ليودع كل منـا الاخر بقبلات تجري على شفاهنا نفس كل منا الى الاخر

وعدلا عما كانا صمما عليه حين رأيا ان مرادا غير الخطة التي كانـا متوهمين انه سينهجها · فقالت وردة · عدل عن قرع الباب وترك باب الحديقة مفتوحا ··· ولم يسد المنفذ الوحيـد للهرب فماذا يريد ان يفعل يا ترى تحت نافذتي

وعند سماع وردة ورايموند اسم طارق التفت كـل منهما الى الاخر كالمنزول به وهما لا يعلمان شيئا من خطة عدوهما · وابصراه يشب بغتة الى الوراء مصغيا الى الاصوات الاتية اليه من جهة الشارع المجاور واندفع كالسهم المارق والحسام مشهر بيده الى ناحية باب الدار المفتوح · فصاح بارسفـال والامل يفيض في صدره · القتـال مشتبك

فقالت وردة · اخطأت يارايموند فـان السفاحين قادمون ··· الوداع ياقرة العين وياحشاشة النفس ·····

فلم يجبها بشيء بل كان ينظر الى الخارج لعله يتبين امرا جديدا في الشارع ··· فشاهد مراد عند عتبـة باب الحديقة متصديا لكل من يريـد

الدخول ومصدرا الاوامر الشديدة وسمع صوت امر يقول باللغة الفرنساوية الى الامام ... اطلقوا النار .....

وطبق الفضاء دوي العيارات النارية فقال رايموند للفتاة التي كانت منطرحة على صدره. ان الفرنساويين قد جاءوا ... وقد دخلوا المدينة... ونجونا ... تعالي ....

وذعر رايموند من صمت وردة ومن رويته اياها تفلت من بين يديه وتنطرح على المقعد فاقدة الحس ورأى عند قدميها قنينة السم وقد اهرق على الطنفسة ما كان باقيا فيها فلساعته ادرك واقع الحال وعلم ان وردة عند سماعها اصوات العيارات النارية تجرعت السم الناقع لتنجو من شر السفاحين. وهي الان تجود بنفسها بين يديه فاندفع رايموند الى الخارج نحو المكان المضطرمة فيه مواقد المعركة وجعل يصيح بملء فيه . الينا ... مدوا لنا ايدي المساعدة ايها الفرنساويون ...

وخزضمير الخائن

١٦

وبينا مراد يهم بمناداة طارق للمرة الثانية تحت نافذة وردة ارتفعت الضجة وراءه في الشارع فسمع اصواتا تنادي ياطارق ياطارق

ففكر المملوك في نفسه ان طارقا كان قد فر وانه عاد وسقط بين يديه وسار مراد مهرولا نحو فناء القصر والسيف مصلت في يده ولكنه رأى مشهدا فجائيا اوقفه وصيره كأنه قطعة من جماد . فمن جهة ان الاتراك

يتهددون طارقا ويصوبون اليه بنادقهم وهو كالمنزول به ومن جهة اخرى كان وراء طارق فصيلة من جنود الانكليز بقيادة امير الاي . فظن هذا القائد ان مماليك مراد تتوعده بالقتل فاصدر اوامره باللغة الفرنساوية مشيرا الى ذويه بان يهجموا عليهم ويبطشوا بهم

فصاح مراد وقد اعمى الغيظ بصره وبصيرته عند رؤيته عواقب عمله الوخيمة وقال اطلقوا النار على طارق.

وقبل ان يعلم ذلك الشاب سبب الاعتداء عليه هوى الى الحضيض وقد اصابته رصاصات اطلقها عليه رجال مراد وكان الى جانبه الضابط الانكليزي . وصرع ايضا جنديان انكليزيان فحينئذ ارتد الجنود الانكليز عنهم وقابلوهم بالمثل بامر زعيمهم فجندلوا ثلاثة منهم وصاح بهم الضابط الانكليزي دالا اياهم على مراد . اطلقوا بنادقكم على هذا اللئيم ...

وبينا هم على تلك الحال واذا بصياح بارسفال قد ملاء الفضاء وهو يستغيث مناديا باللغة الفرنساوية . فامتقع وجه الضابط الانكليزي وامر رجاله بانزال اسلحتهم عن اكتافهم

والتفت مراد في نوبته فاصابته رعشة قوية وخرج الى الشارع وهو على غير هدى من امره لانه كان ينظر ذلك الذي كان يظنه قد قتل في يافا آتيا اليه ولم يكن تنكره ليخفيه عليا فندم على معاملته وردة باللطف وعلى حقنه دم خصمه ووضع يده على عينيه كأنه يرفع بهما عنهما غشاء كان يغشي بصره وشعر بان كآبة شديدة توهن قوته . فمر رايموند امامه بسرعة البرق وانسل بين الانكليز ملتجئا اليهم ولما وصل اليهم وتأمل فيهم عرفهم انهم انكليز . ولما بان له خطأه اراد الانتكاص على عقبه والعودة الى

الحديقة ليشاهد وردة تجود بنفسها بين يديه .. ولكن تصدى في وجهه حاجز من المماليك فناداه الضابط الانكليزي قائلا له . سلم لنا ياحضرة السيد ..

واحاطت به من كل ناحية حراب بنادق الجنود الانكليز وسمع صوت عيار ناري تلاه سقوط رايموند على الارض مصابا برصاصة في ظهره . فان مراد غاب عن الصواب وارتكب هذه الجريمة التي جعلت الانكليز ورجاله انفسهم يتذمرون منه . وصاح به الضابط الانكليزي متهددا اياه اتريد ان تقتل اسراي بين يدي . لقد طفح الكيل يامراد ...

فقال مراد . انت جندي جاحد ايهمس في ضميرك ان تعلمنا امثولة الشهامة

وللحال قال رايموند بتعزز بعد ان ثاب اليه الروع . اولست فيليبو .

وكان لكلمة رايموند تأثير على الجاحد حتى انه خفض غدارته بعد ان كان قد صوبها على مراد وخاطب رايموند قائلا له . انت اسيري ياحضرة السيد

— تبا للحالة التي صرت اليها ... اقتلني ... انا يوزباشي من اركان حرب بونابرت

فتأثر فيليبو من سماعه اسم بونابرت وقال . لسنا اتراكا . خذوا هذا الرجل الى غرفتي وليخفره عشرة جنود

والتفت رايموند الى مراد وقال له . يامراد انقذ وردة اذا كان ذلك الامر مستطاعا لك فانها تجرعت سما

وكان رايموند معذبا من رؤية المملوك يسرع بدخول الحديقة . فقال والغيرة تتأكل فؤاده . انه يحبها محبة لا يحيط بها نطاق الوصف وقد

نسي بغضه لي وانخذال ذويه امام الانكليز الذين يتهددونه بتصفية آثارهم
واخذوا رايموند عنفا وعلى رغم منه . فصاح بهم الامير الآتي قائلا .
احترموا منزلته .

ثم انه التفت الى عبدالله وسأله قائلا . اتريد ان تقول لنا لماذا اطلقتم النار علينا

— لم نطلق النار عليكم ولكن على طارق الخائن ...

— وكيف كان ذلك

— لا اعلم ... وانظر الان الى ما فعله مراد بشريكه ...

قال عبدالله هذا الكلام ودحر برجله جثة سعيد

فقال فيليبو . مساء امس اخذت معي المملوك الشاب ... وكان وحده يستطيع ان يكون ترجمانا بيني وبين الدروز الذين كنا نفاوضهم بالانضمام الينا وكان طارق يحسن التكلم بلغتهم وقد بقي معي الليل بطوله يفاوضهم في ما كنت قد انتدبته اليه . واليوم عدت به مع رماتي . فهل تريد ان توقفني على كل ما جرى

— اجهل ما تبتغي معرفته مني . ولا ادري شيئا سوى ان طارقا كان مقضيا عليه بالهلاك لان الزعيم كان قد اظهر ارادته في هذا الامر

— ويحا لكم من وحوش ضارية

قال فيليبو هذا الكلام وسار برجاله الى حديقة قصر الجزار حيث كان رجال مراد مقيمين بقصد الدفاع وكان يهمه كثيرا ان يجتمع باسيره وينال منه كلمة شكر وميل ولكن استقبال بارسفال له جمد الدم في عروقه ولم يمكنه من مقابلته بالغضب

وسأل فيليبو طبيب القائد الانكليزي الذي جاءوا به الى الاسير قائلا له . ما رأيك في هذا الجرح.

انه خفيف فالرصاصة مرت فوق العظم عند اسفل المنكب اجل انه يشعر بالم منه ولكن لا يوجد هناك خطر على حياته ... والان استأذن منك ياحضرة الامير الاي بالذهاب الى الجزار

— المعالجة مماليكه الجرحى انت ذاهب اليه

— لا ولكن لمعالجة امرأة تجرعت سما ... وهاءنذا ذاهب اليه على جناح السرعة

فقال له رايموند متوسلا . ياحضرة الدكتور ...

فقال الطبيب متعجبا . ماذا تريد ياحضرة السيد ...

— ان هذه المنكودة الحظ هي... خطيبتي ... وزوجتي ... اتعدني بان تقول لي ...

— ولكن

فلم يدعه فيليبو يكمل مقاله بل قال له . سر وانا اسير معك لان الباشا دعاني اليه لكي اوقفه على حقيقة ماجرى

وتأسف بارسفال على جرحه عواطف الخائن وقال في نفسه . من ياترى يمنعه عن الانتقام مني ....وجعل يلوم نفسه لتركه وردة على تلك الحال ولانخداعه بنجاة الفرنسويين وكان يشعر بحمى مسببة عن جرحه واستاء من مراد لانه لم يصب منه مقتلا بالرصاصة التي اطلقها عليه واقسم بانه سيصرم حبال حياته بيده ولا يعيش دقيقة واحدة بعد موتها . وبينا هو على تلك الحال واذا باصوات قذائف المدافع تدوي في الفضاء فانتفض من

شدة الفرح لعلمه ان بطارية دومارتين كانت قد غيرت خطتها في اطــلاق المدافع وصوبتها على السور الداخلي بدلاً من البرج الحديدي وانه سيكون لموته فائدة لبلاده لتيقنه انه سيهلك ولا محالة لان فيليبو لم يكن يتدخل ابدا لانقاذ اسرى الجزار

ولما عاد الجاحد كان الليل قدارخى سدولــه فامر لساعته بادخــال بارسفال عليه . ولما جاء بارسفال قال له فيليبو . ياحضرة السيد لقد انقذتك رغما عنك من بين يدي مراد الذي لا يزا ل يطلبك من الجزار مدعيا انك اسيره لكي يذيقك من العذاب اشكالا والوانا

ولماذا تنتصر لي مدافعا عني

ـــ لانك ضابط فرنساوي وقدكنت نظيرك منتظما في سلك الجيش الفرنساوي . وان انت ابرزت علي الحكم بكل تجرد وانصاف علمت اني لا ازال فرنساويا بدون ... ولكن ما لنا ولهذا الكلام الفارغ ... فانا آتيك باخبار من الفتاة التي يهمــك امرهــا . واعلم ان الخطر لا يتهدد حياتها لان السم كان سريع التأثير بجرعات قليلة ولذلك لم تمت منه . وان مرادا نسيبها الشرس الاخلاق ابدى لها لطفا لم يكن معهودا فيه فاوعزالى رجال الباشا ان يعتنوا بها اعتناء شديدا فقال له رايموند بصوت مضطربه . شكرا لك

ومد يده بغير انتباه يريد مصافحة يد الجاحد الا ان فيليبو ارتد الى الوراء متبسمــا تبسما مرا وسأ لــه الضابط الفرنساوي قائلا له ما اسمك

ـــ اسمي رايموند بارسفال

ـــ اتريد ان تقسم بشرفك انك تكون اسيري وتقيــم في بيتي حيث

تكون بمأمن من وصول شر اعدائك اليك وان تكون اسيرا تحت مراقبة الخفراء

— أ الى مثلك اقسم بالشرف

فامتقع وجه الجاحد عند سماعه ذلك الكلام من رايموند وقال له مغضيا عينيه على القذى

فهمت ما يسنح في بالك من الاوهام وفيمكنك والحالة هذه ان تحلف امام الامير الاي دوغلاس..

— وهل اقيم عنده

— نحن مقيمان معا في بيت واحد

وبعد ان اعمل بارسفال رويته مترددا قال . ارضى بما تقترحه علي

وكان يقاسي الاما مبرحا من جرحه وشعر بان الضعف مستول عليه فاهتم به فيليبو اهتمام الاخ باخيه وسهر عليه الليل كله مراقبا هذيانه وتقلبه على سرير الاوجاع وكان من حين الى اخر يسمعه يلفظ اسمه ويراه يبدي علامات التأثر عند التلفظ به وكأن فيليبو كان يسر من تحمله تلك الاهانة ويعدها نوعا من التكفير

وقبل تبلج الفجر جاء القائد الانكليزي والاضطراب بالغ منه فقال للجاحد . ياحضرة الامير الاي اني آت لاخبرك ان كل ما توهمته قد تحقق فان الفرنساويين لما علموا ان مهاجمتهم للبرج الحديدي عقيمة صوبوا على السور الداخلي قذائف بطارتهم الكبيرة التي وصلت اليهم موخرا من يافا وقد فتحوا في السور المذكور ثغرة يسهل العبور منها وبعد بضع ساعات يهجمون على المدينة هجوما عظيما فهل لك ان تعطينا تعليمات جديدة ما عدا التعليمات

التي تلقيناها منك قبلا

— لا ولكن ان جريتم بموجب الخطة التي رسمتها لكم استحق بونابرت هذا المساء ان يلقبوه باسم الجزار لانه يكون قد ضحى على غير طائل فريقا كبيرا من رجاله

ولما سمع بارسفال المحاورة التي دارت بين فيليبو والانكليزي فتح عينيه ونفض عنه غبار الضعف واستعاد اليه الرشد شيئا فشيئا ولكنه ما عتم ان شعر بانه قطعة من الجماد لا يستطيع التحرك . فلذعت كلمات الجاحد خوله وارتعش مريدا النهوض وانتهار فيليبو اوالتوسل اليه بان يتركه يهرب لموافاة ذويه وتخليصهم من الردى .. ولكنه لم يقو على التلفظ بكلمة واحدة وكانت عيناه المتقدتان بنار الغضب شاخصتين الى الجاحد وعلى جبينه تقرأ البغض الشديد له

ولما فصل سدني سميث عن ذلك المكان اقبل فيليبو على رايموند وجلس الى جانبه وقال له .لا اقوى على تجرع غصص هذه الاهانة بروءيتي اياك تبرز على الحكم قبل سماعك دفاعي عن نفسي . فها انذا ابوح لديك كل ما جرى

— اياك والكذب

— ان الكذب ليس من شأني .وبعد سماعك كلامي يمكنك ان تشجبني او ان تنصفني ..

واصغى بارسفال الى كلام الجاحد الذي كان يتكلم بلهجة عنيفة وكثيرة التأثر

فقال فيليبو . ان هذا السور الداخلي كان يجب عليكم ان تهاجموه

في بدء الامر ...

ــان هذا الرأي رأي القائددومارتين

ــ كنت مرتابا في ذلك ... ولايخفى عليك ان هذا السورالداخلي هو النقطة الوحيدة الممكن احداث ثغرة فيها وهو الان مصون باستحكامات على شكل دائرة وعلى الثغرة تصب نيران رماتنا ولكن دون ان توءثر بها شيئا. وسيتحققون ذلك من الهجمة الاولى بعد ان يخسروا عددا كبيرا من الرجال لان الفرنساويين لا يحجمون بسهولة ثغرة واسعة جدا ليتسع المجال في وجه المهاجمين بعد ان تفشى الاستحكامات بالقذائف

فقال بارسفال وهل تفتح المدينة

ــ نعم تفتح بعد ثلاثة ايام على شرط ان لا يسرع الكورسكي باصدار الاوامر بالرجوع فجأة

ــ ولماذا يرجع الى مصر ...

ــ لا يرجع الى مصر ولكن الى باريس

وعلم رايموند عند سماعه كلام فيليبو ان هذا الاخير كانت قد انتهت اليه اخبار من اوربا تمكنه من بعد النظر في الحوادث ومعرفة نتائجها معرفة تقرب من الحقيقة

ــ حين يبادر قائدكم بونابرت الى الهرب على جناح السرعة ــ وسامهد له سبيل الفرار حاملا القائد الانكليزي على اغضاء الطرف عن هربه ــ تلقى مقاليد القيادة الى كليبر ولانوبون وحينئذ اسرع بارسالك اليهم لتوقفهم بذاتك على الاشياء التي تفيدهم معرفتها فعند ذلك تسقط عكاء في ايديهم

فاضطرب بارسفال ونظر بدهش الى الخائن نظرة تدل على رباطة جأشه ثم قال له · ايهجس في ضميرك ان قائدنا يغادرنا امام اسوار هذه المدينة المحاصرة

— انك يافتى من عداد اولئك الجمهوريين الذين غشت على بصائرهم ستائر الغرور فانت تظن ان رئيسك من صف الرجال الذين يصفهم بلوترخوس ··· لقد ساء وهمك فاعلم اني انا الذي كنت صديقه ادري اكثر من سواي ما يضمره في زوايا نفسه ·· فدهاءوه متوقف عليكم انتم جنوده البواسل ولكنه يدوسكم بقدميه ليصعد الى القمة التي يطمح اليها بصره ومع ذلك فانتم ابناء الثورة الفرنساوية تطبقون الفضاء بالصياح قائلين ليحيَ قيصر ···

فهز رايموند منكبيه وقال · ان بغضك له يجعلك تجنح عن سواء سواء السبيل في مقالك فبونابرت وطني كبير كما هو قائد عظيم · وهو لا يغادر في صحاري الشرق الجيش الذي نفاه معه الديراكتوار مدفوعا الى ذلك بعوامل الظلم والبغض ولسوف نخرج من هذا المأزق ظافرين وقد رفع انتصارنا مقامنا حتى ان العالم برمته يعلم ما اتصف به قائدنا من الحنكة والدهاء· وانت نفسك ستتحقق هذا الامر ، بناء عليه فاذا بقي قائدكم هنا قضي الامر الذي كنت اخشاه وتقلص ظل امالي

اذا وقعت اسيرا في ايدي الفرنساويين طلبتك منهم بصفتك اسيرا لي ··

— وهل تنقذني··· انا اكفيك مؤونة الاهتمام بهذا الامر ···
قال فيليبو هذا الكلام وجعل يتبسم تبسما معنويا ومبهما

فقال بارسفال بمرارة · تعهدت بالبقاء في الاسر ولولا ذلك ···

— انا اعلم ما يجري في صدرك···فانت لولا تعهدك لكنت تبقى في المدينة لاجراء واجبات رجل شريف·ولكن لا يسوءك هذا الامر فانا امزق صك التعهد الذي وقعته فدونكه قطعا

— اتريد ان تبقيني اسيرا تحت مراقبة الخفراء

— انت وما تريد

— اتعجب من روءيتي مثل فيليبو ···

— احبس لسانك عن كلام الاهانة بحضرة السيد ··· فانا لا اجعلك تحت المراقبة لكي اتصدى لفرارك ولكن لانقذك من طائلة الردى ···لان مرادا لما لم يستطع اخذك من بين يدي اقام حول هذا البيت رماة فوض اليهم ان يرموك بالرصاص حالما تبدو لانظارهم ··· وقد وعد من يقتلك بمبلغ طائل من المال · والان انظر ···

قال فيليبو ذلك واخذ بيده بارسفال الى جانب النافذة واراه من وراء الستائر ثلاثة رجال واقفين في الشارع وبايديهم بنادق انكليزية وهم يرصدون باب منزل فيليبو ونوافذه·وفي الحديقة ايضا كان رجال فوض اليهم امر اغتيال بارسفال · ثم ان فيليبو قال· واذا علمت كل ذلك فاني خارج لقضاء بعض الاشغال وانت ابق في منزلي ولكنك لم تعد اسيري مطلقا فانتظر رجوعي وساتيك باخبار جديدة مهمة ····

وترك فيليبو بارسفال حائرا مما سمعه منه · ولا يخفى ان ذلك الجاحد الفرنساوي الذي القته الاقدار بين صفوف الاعداء ومكنت قدمه بينهم بغضاء الشديدة للكورسكي كان يمكنه ان يخدم بلاده · فان مثل ذلك

الحادث الخطير كان ليقرر عزمه على التوبة والارتداد

ولم يلبث رايموند ان عاد الى الافتكار بوردة وبما سيأول اليه من امره معها ... فتمثلت له تلك الفتاة بعينيها المغمضتين ووجهها الشاحب ملقاة على الوساد في حجرتها وقد نشر الموت فوقها جناحيه . واراد رايموند ان يطرد من مخيلته تلك الروءيا الهائلة فاصغى الى اصوات المدافع وسمع اصوات بنادق متواصلة في جهة الخنادق حول السور . وحينئذ علم ان تلك الاصوات كانت نتيجة الهجوم الذي كان الجاحد ينتظره . فانقبض صدر بارسفال لانه لم يكن مع رفاقه وكانت الكلمات التي فاه بها فيليبو امامه تنتاب فكرته كأنها تهديد هائل . ولما لم يعد ادنى تعهد يربطه فكر في امر الفرار

وكانت الانقاض تملاء الارض فانسل خفية الى كوخ يوءدي الى الحديقة وابصر بستانيين مسلحين لم تكن عيونهما تفارق نوافذ مسكن فيليبو فقال بارسفال في نفسه . لا اكاد اصل الى الارض حتى تصميني رصاصاتهما ورصاصات رفاقهما .....

اجل ان جرحه كان قد اندمل ولكنه لم يكن قادرا على استعمال ذراعه بعد وعليه فلم يكن مستطيعا مناصبته اعدائه . وسمع جلبة اتية من جهة السوق فعاد الى مخبأه وبعد قليل ابصر جماعة من الانكليز حاملين فيليبو وقد ذر بهار الموت على وجهه فذعر رايموند وصاح قائلا . وهل جرح

فاجابه فيليبو قائلا . لم اصب بجرح . وبعد ان صرف الجنود الذين جاءوا به عاد فاستأنف حديثه مع رايموند قائلا له . ان الجراح الذي عالجني يظنني مصابا بالرعن «ضربة شمس » من جراء طول بقائي على السور مع انني اصبت بضربة دبوس على رأسي . فهل تظن ان اولئك

الفرنساويين الملاعيـــن يهجمون على السور من الجهة الضيقـــة غير مبالين بالنيران الحامية التي تحصدهم حصدا

قال هذا الكلام واحتدمت مواقد الغضب في فوءاده. ثم انه قال . امرت رجالي بان يحملوني اليك لكي لاموت بين الانكليز والاتراك .وان مرادا لا يتخلف ابدا عن المجيء الى هذا المكان للبطش بك... فانا اعرفه معرفة حقيقية ... وهو لا يقيم الان في عكاء الا لاخماد جذوة انتقامه..

— وكيف يكون ذلك

— لا تخفى علي همومك فاعلم اني مع ما انا عليه من الاهتمام بامر الحصار اردت الوقوف على اخبـــاريهمك الاطلاع عليها وقد عرفت ان زوجتك الشابة قد فصلت هذه الليلة عن هذا المكان ...

— اصحيح انها برحت هذا المكان... اصحيح انها نجت من الموت..

— لا تزال مريضة ولكنها خرجت من دائرة الخطر المحدق بها وقد نقلها مراد الى بيروت عـــلى متن سفينـــة انكليزية ويبين لي ان عمها منصورا..

— اني دار كل شيء

— لقد ارسلوها اليه لكي يفصلوها عنك ريثما يتسنى لهم الايقاع بك

فتنهد رايموند تنهد القانط وقال . فقدت وردة من يدي

— لم تفقدها بعد ...ويمكنك ان تقتفي اثرها ...ولكن يهمك قبل كل شيء الخروج من هذا المكان.. وقد فوضت الى خادمي الاسكوتلندي امر النظر في مساعدتك على الفرار.

— اتخاطبني بامر الخروج...اجل اني لا ارى شيئا اشهى على قلبي منه ... ولكن اعطني اسلحة لكي انطلق ...

ــ للقذف بنفسك الى وهدة العطب ... ان الحماقة من طبعنا نحن الفرنساويين ... لقد استدعيت الي بري خادمي وعن قريب يدخل علينا وحينئذ ننظر بسهولة على ما يجب علينا تقريره

ــ ولكني اراك تقاسي عذابا مبرحا فما بالك ...

ــ دخلت طور الاحتضار

وكانت سحنة فيليبو قد تغيرت تغيرا ظاهرا وبدت عليها بقع زرقاء وتكللت بالعرق البارد ولكنه تجلد وتطلع في وجه بارسفال متبسما ثم انه قال له . ان الرعن الناتج عن مثل هذه النار المحرقة يكون دائما وخيم التبعة.

ــ دع عنك هذا المقال وهذه المخاوف... فساعتني بك اعتناء شديدا وهذا المساء تشاهد ماتوريل الى جانب سريرك واؤكد لك ان قادتنا ....

فعالج فيليبو النهوض بمشقة عظيمة وقال . هذا المساء ينحدر بونابرت مرتدا الى الوراء وانت وانا ننجو كلانا

ــ اتسير الى معسكرنا

ــ اسير الى الخفير

تحت القذائف

١٧

وكان نجم سعد بونابرت قد مال الى الافوال للمرة الاولى في حياته فان مقاومة عكاء جعلت بنائق صبره تنفتق ومع ما كان جونو وكليبر قد نالاه من النصر في الناصرة وجبل تابور بتمزيقهما شمل جيش دمشق طالت مدة حصار

عكاء واحبطت كل مساعي بونابرت ولما لم يبق في قوس صبر رجاله منزع طلبوا منه اصدار الاوامر بالهجوم على المدينة فامرهم بتسلق السور عند الثغرة وللحال هجم جنود القائد رامبو على الخندق وعالجوا تسلق السور ووراءهم اربعة مدافع يديرها الملازم ديجون . . واجتازت طليعة الفرنساويين الثغرة تحت نيران البنادق التي كانت تحصدها حصدا . وقد تراكمت الجثث عند تلك الثغرة وسدتها في وجوه المهاجمين واضطر الجنود الى التوقف عن التقدم تحت مطر القذائف وتقطع نظامهم بين الانقاض . ولم يصغ احد لاوامر القائد لان الذي اسرع الى المقدمة وامرها باستئناف الهجوم . ولما وصل الى الثغرة وتحقق عجز رجاله سير اشجع المقاتلين على عقب رامبو . وكان الموت يحصد جنود هذا الاخير ويكاد يفنيهم عن بكرة ابيهم

وكانت بطاريتان انكليزيتان تطلقان قذائفهما على الجدار المناوح للثغرة فتداعى بفرقعة عظيمة وغيب عن الابصار ديجون ومدفعيته . فجزع لان وهجم على ذلك السور دون ان يتطلع وراءه لينظر هل كان رجاله يتبعونه فان رغبته في الموت سلبت منه كل شعور بالمسوءولية الملقاة على عاتقه وجعل يقاتل نظير اخر جندي من جنوده وقد ذهل عن اصدار الاوامر للضباط

وبينا هو على تلك الحال واذا برجل انكليزي برز له فجأة وهو اعزل وذو وجه اصفر فدنا منه وهو مضطرب وقال له . ياحضرة القائد لان مر جنودك بالرجوع والا هلكتكم عن اخركم

فقال القائد الفرنساوي بغضب . ان هذا الامر لا يكون ابدا ولانتكص على اعقابنا البتة بعد بلوغنا هذا المكان ولم يكد يفوه بهذا الكلام حتى اصابته

رصاصة فترنح واوشك ان يهوي الى الارض لو لم يسنده ذلك الرجل الانكليزي بذراعيه ويرفع صوته امراً الجنود بالانسحاب . وحمل القائد الفرنساوي الى زاوية من زوايا السور حجبته عن الابصار . فدهش لان وجعل يتفرس فيه قائلا له . من انت يا صاح .

— انا اليوزباشي بارسفال

— أ انت هو اليوزباشي بارسفال فالجميع عندنا ظنوا انك صرت من عداد الاموات

— قمت من الموت في الحين الملائم لكي انجيكم جميعكم .... وانت يا حضرة القائد مجروح فلنذهب الى المستشفى

— لا يمكنني الذهاب قبل ان يجتاز رجالي تلك الثغرة الملعونة في هذا السور وينتظم شملهم الممزق في مكان امين

— انظر الى ديجون فقد نجا باعجوبة من الموت الذي كان يتهدده ولكن اين رامبو

واشار احد الجنود اشارة معنوية لان قائده كان عند اسفل السور مصابا بجرح يسيل منه الدم ولكنهم لقوا حامهم عند الاستحكامات التي نصبها فيليبو

وقبل ان يجري رايموند وراء لان الذي نقلوه الى المعسكر القى نظرة اخيرة على استحكامات ذلك الموقع وقال في نفسه . ارى ما بقي علينا عمله لتذليل المصاعب القائمة في وجهنا

وبرز فوق السور جندي ارلندي فجعل يبحث بقلق ظاهر عن شخص بين الجنود الفرنساويين المنسحبين من ناحية السور . فعرفه بارسفال وقال . هذا بري . فها انذا اعطيه علامة ليذهب الى مولاه ويخبره اني نجوت ....

والحق يقال اني لولا تدخله في امري لما كنت قد تمكنت من النجاة

وكان الانكليز من شدة حنقهم على ذلك الفار يترصدونه لاطلاق النار عليه الا ان بري منعهم عن ذلك بقوله لهـم · ان بارسفال كان سائرا الى معسكر الاعداء بمهمة وهي مفاوضة بونابرت بامور تعود عليهم بالخير

وكانت جماعة من المماليك واقفة على السور فالقوا النار على بارسفـال ولكنهـم اخطأوه لانهم لـم يكونوا يحسنون الرماية وبعد حين قصير وافى بارسفال رفيقاه الاعرابي والسوري · فسأله محمد بلهفة قائلا له وماذا جرى لمراد

فاجابه بارسفال وقال له متبسما · صبرا ياصاح فانه لايفلت من بين ايدينا دائما · · ·

ولما وصل الجنود المنسحبون من عن ثغرة السور الى بونابرت وقصوا عليه انباء انحدارهم قال لهم وقد كاد صبره يفرغ · وهل اسرتم هذا الرجل الذي جئتموني به

— هذا هو اليوزباشي بارسفال · وقد تمكن من الفرار من عكاء بتزييه بزي جندي انكليزي

— جيئوني به

وخلا رايموند بالقائد بونابرت واركان حربه مدة من الزمـان قص عليهم في اثنائها الحوادث التي جرت له ووصف لهم خطة الدفاع التي توخوا الجري عليها والتي يقضي عليهم هدمها قبل عودهم الى الهجوم مرة اخرى فقال بونابرت · سحقا له من مكان ملعون هلك فيه كثيرون من نخبة رجالنـا كرامبو وكافارلي وغيرهما · ولـم ننته بعد من امره · · · ولم يكفنـا

الاعداء حتى قام رجل فرنساوي وانضم اليهم لمقاتلتنا ... الم يقل لك شيئا عني ذلك الجاحد

—بلى ياسيدي القائد

— وماذا قال لك

— انه يبغضك بغضا شديدا وهذه هي العاطفة الوحيدة التي تحرك فؤاده

— ما لنا ولهذه العاطفة فانها شخصية ... ولكن ماذا يقول عني فانا اعرف نفسه المجبولة من طين اللوم والشر وعليه فانا آمرك بان تقول لي ماذا يقول عني

— لا يعرفك حق المعرفة يامولاي ولا يقدر صفاتك حق قدرها

— انه ينسب الي الطمع الشديد والقساوة العظيمة

— ويزعم انك عازم على مغادرة جيش مصر وسوريا للعودة الى باريس على جناح السرعة

وكان بونابرت يخطر في المضرب ذهابا وايابا ويداه مكتوفتان وراء ظهره فالتفت بحدة الى اليوزباشي وقال له . وهب كان الامر كما يقول الا تستصوب انت خطتي

— ايهجس في ضميرك يامولاي القائد ان تهجرنا

— ان فرنسا محتاجة الي فالمصائب تتوالى عليها وعداوة القواد الذين استطيع ان اخضعهم لارادتي ....

—ولكن ماذا يحل بجيشك المصري ... وبنا طرا ....

— ان الجيش يحفظ لنا الشرق المفتوح وساترك له كليبر واما انت فاصحبك معي الى فرنسا وستكون من اركان حربي وسترى يابارسفال

بعينيك اوروبا الجديدة التي تصيرهافرنسا بقوة عزائمنا

— ياحبذا لو صحت الاحلام ليت الجمهورية العمومية تنتشر وتتناول الديار الاوروبية جميعاً

— اتقول الجمهورية . الم يقل لك فيليبو اني اتمدد خيانتها

— قال لي ذلك ولكنني لم اصدقه

فهز بونابرت منكبيه وبادل بوربان الذي دخل عليه في تلك الدقيقة نظرات معنوية يصحبها التهكم ثم انه قال : فلنبادر الى مزاولة الامور المهمة . لنفتح عكاء ولنعلق الجاحد وحين ارسل رأساً الى مونج يخبرني هذا عما اذا كان يجد على جمجمته حدبة الرياضيات

قال هذا وبدت على وجهه علائم بغض شديد قديم لذلك الرفيق الداهية فقال له بارسفال . ان فيليبو لم يعد يخاف شيئاً منا

— هل هرب

—لا ... الان صارت الساعة السابعة وقد غابت الشمس فلا بد من ان يكون الامير الاي قد مات

فلمعت عيني الكورسكي بوارق تأسف وحشي واخفض رأسه دون ان ينطق بكلمة واحدة واقبل على العمل ... وكان رايموند مصيبا في ظنه فان الجاحد لفظ نفسه بين يدي بري بعد ان عرف منه ان الاسير تمكن من الفرار . وخلف اللرد دوغلاس فيليبو في ادارة اعمال الحصار والطوبجية وكانت في يد الامير الاي الانكليزي كل الخطط التي اهمل الجاحد تعفيته اثارها . وكانت جميعها كافية لاخفاق هجمات بونابرت الذي كان محولا جميع افكاره وامياله الى باريس . ولم يكد نبأ وفاة الخائن ينتشر حتى بادر

مراد الى الجزار طالبا منه امرا مشدداً بقتل بارسفال وسار مسرعا الى الموضع الذي كان يظن رايموند مقيما فيه وقال لرجاله . حالما تقع اعينكم عليه ابطشوا به بغير تردد فالجزار قد ابرز الحكم عليه بالموت وكان عازما على التنقيب عن بارسفال في كل جوانب البيت غير مبال باستياء بري الذي تقلد سلاحه دفاعا عن حرمة مولاه ولكن جاء رجال عبدالله واخبروا المملوك الشاب ان الاسير اركن الى الفرار وتمكن من موافاة معسكر الفرنساويين

فقال لهم مراد . كان يجب ان تطلقوا النار عليه وتقتلوه

— كان قد ابتعد عنا كثيرا حين علمنا بفراره وبصرنا به يعدو وهو متنكر بلباسه ...

— وكيف تمكن من الخروج من هذا المكان

— كان في الفرقة الارلندية بقيادة فيليبو وقد سار مع تلك الفرقة الى السور لرد هجمات الفرنساويين ولم ينتبه اليه احد من الخفراء الثلاثة الواقفين على السور لصد حركات الذاهبين والقادمين لانه كان مختلطا بين رفاقه الانكليز ...

وجعل مراد يطيل التفكير في ذلك الامر ثم انه تبسم تبسما غريبا وقال . يظن وردة قد ماتت او اصيبت بداء في هذا المكان وهو يتوهم انها لا تبرحه قبل انتهاء الحصار . وانا لم يبق لي عمل اجريه هنا في عكاء

لما كان في الغد خرج من عكاء منطلقا الى بيروت فلقي عند منصور استقبالا باردا مقرونا بالتعنيف وكان من جملة ما حدثه به منصور ما يأتي

— ان الفتاة اعترفت . بكل شيء وانت اجبت نداء الحدة والقيت

الشكوك بين قومنا . فلماذا لم تدع الحلم يدخل قلبك

— لا استطيع هذا الامر البتة..

— يا ابني ان السنين والتجارب قد حنكتني فاعلم انه كان من المقضي عليك قبل قتلك سعيد وصرمك حبال امال ذينك الشخصين ان تعمل الروية ثلاثة ايام على القليل

— اكان من المستطاع ان ادع ذلك المسيحي ...

— صه ... لئلا تسمعك وردة فانها لا تزال واهنة القوى ... واني والحق يقال لم اجد ادنى تعصب ديني عند هؤلاء الفرنساويين فمن الجهة الواحدة لا يبالون بالدين ومن الجهة الاخرى يحترمون جميع الاديان ولعمري ان ثورتهم المشهورة عظيمة بقوتها وعظمتها ... وقد نصحت لابراهيم ان يفاوضهم بكل عزة نفس . ولما سمع مراد ذلك القول هاج هائجه واغلظ الكلام لمنصور الشيخ . فاضطر هذا الاخير الى اسكاته باشارة تدل على السلطة وبقوله له . احبس لسانك عن الكلام فلي وحدي في هذا المكان الحق برفع الصوت ولكنني لا افعله مراعاة لـ.....

— لوردة ......

فللحال سكن ما فار من فائر مراد ونهض وقد شعر بالخجل . وكانت الفتاة عند سماعها صياح المملوك الشاب قد خرجت من غرفتها وجاءت الى الموضع الذي خرج منه الصوت . فرآها مراد واقفة على العتبة وقد بان الاصفرار على محياها من وراء البرقع المسترسل عليه وكانت مقلتاها قد جحظتا من شدة الالم وفرط الغضب فالتفتت الى منصور دون ان تخاطب مراد بشيء وقالت .

يا ابي . انا منتظرة تتميم وعدك

ـــ نعم يا ابنتي... استندي الى ذراعي ... لماذا نهضت من سريرك ولم تعملي بموجب ما اوصيتك به . الا ترين انك ترنحين وتكادين تهوين الى الحضيض ...

ـــ اريد ان اعرف... فانت قد وعدت ...

ـــ سكني روعك فان قلب مراديرق... وهو يقول لنا الحقيقة كلها لانه جندي عزيز النفس وفتى يحترم شيخوختي وضعفك

ثم انه سأل المملوك بلطف قائلا له . ماذا جرى لذلك الفرنساوي ... هل مات ... فان رجوعك الى هذا المكان يجعلنا نظن انه قد هلك

وكانت وردة تصغي الى كلام عمها منتظرة جواب مراد وهي كأنها شبح من الاشباح وقد ثارت في فوءادها جميع عواطف البغض والحسد لذلك المملوك . فاراد ان يكذب ويهدم القصور الهوائية التي كانت تلك الفتاة المصرية تبنيها في مخيلتها ولكنه خشي ان يراها تموت امام عينيه . فغض طرفه وقال بصوت ابح . لا يزال حيا يرزق... وقد تركته يهرب على رغم مني

فالقت وردة رأسها على كتف منصور وبكت من شدة الفرح لعلمها ان حبيبها رايموند لا يزال في قيد الحياة ... واخذها الشيخ وهي في حالة ضعف شديد واما مراد فانه بقي في مكانه يلوك في رأسه افكارا مختلفة ويده على قبضة حسامه وقد صمم النية على الرجوع الى عكاء ليفرغ هذه المرة من امر الضابط الفرنساوي او ليصرم حبال حياته

وكان يأمل ايضا ان الزمان يفل من حد الجزع في فوءاد وردة . فلم يكن سوى شاب مملوء من نزق الشباب والمملوكة لم تكن سوى فتاة في ربيع الحياة وقد تمكن من التجلد وقال في نفسه . ان هــذا الاصفرار ناجم عن

السم الذي تجرعته ... ولسوف تنسى ...

فسمع صوت منصور وراءه يقول اخطأت في وهمك فقد تركتها في حالة تهيج شديد يبوح بحبها العميق لذلك الضابط الفرنساوي ان عينيها لا تقعان عليه ابدا

— لا بأس من ذلك ... فلم يبق لدينا سوى امر واحد نأمل الحصول عليه . وهذا الامر يخصك لاني قد بلغت الشيخوخة وفارقتني همتي ... فنحن نعود بها الى مسقط رأسنا حين تصير قادرة على السفر..

— امالئك على المضي الى مصر ولكنني اخالفك في امر الذهاب الى الكرنك... لانها تجدد هناك ذكرى ذلك الفرنساوي الملعون ... وما دام هذا الرجل حيا اظل حاجزا بينه وبينها وان هو مات — وعن قريب او قع به — تنساه حالا ...

— انها تحبه

— لا تقل لي مثل هذا الكلام والا قتلتها لديك ...

— ان الحب اقوى من الموت.

ولما سمع مراد ذلك الكلام لم يعد يقوى على احتمال تلك الحال فخرج من البيت مغضبا وجعل يفكر في تدبير تهلكة يتملص بها من ذلك الضابط الفرنساوي الذي اقلق باله وسلب راحته .

القافلة

١٨

وكانت فصيلة من الجنود الفرنساويين مخيمة على كثيب من الرمل يتصل به من اليسار مرفأ الاسكندرية الجديد ومن اليمين طريق ابي قير وبحيرة المهدية فلما مرت قافلة بمكان قريب منهم قال احد الجنود ان هوءلاء الاتراك اللئام قد نجوا من بين ايدينا . فقال له رفيقه . هذا هو قائدنا غوران وربما كان يعرف هوءلاء الاشخاص المشتبه بهم ...

ولما وصل غوران خف للقائه الجندي فولافوان وقال له بوجيز الكلام . عند طلوع النهار ابصر ماريول زورقا للاتراك يحاول انزال الركاب تحت المنارة ولما القى صعوبة في ذلك المكان جاء الرأس الذي تشاهده هناك عند الموضع الذي تنقسم فيه الطريق قسمين . احدهما يوءدي الى ابي قير والاخر الى الرحمانية

— وهل فحصتم هوءلاء الركاب

— لا . لانهم ابرزوا جوازا قانونيا فهم مماليك ابراهيم بك

— ان المفاوضة جارية بيننا وبينهم لعقد محالفة

— لا ادري سبب تأثرك والداعي الى اقتفاء اثار هوءلاء الاشخاص

— اعلم ان غوربي ... توهم انه رأى وعرف...

— من عرف... مالك تتردد في الكلام ... تكلم ....

— وهل يوجد امرأة

ــ المرأة

ــ نعم ياسيدي يوجد امرأة دنفة تذكرني هيئتها وعيناها

فقاطعه ماستيك الكلام قائلا . انك مخطىء موقع الصواب فهذه المرأة نحيلة الجسم معتلة ترف فوقها اجنحة الحمام واما تلك المرأة فقد كانت تصعّر خدها تيها وكانت مدمجة المفاصل قوية الاساطين وثيقة الاركان

فعلت وجه الضابط الحمرة وقال . أتقول ان هذه المرأة هي وردة .. ذلك مستحيل .. فقال غوربي موء كدا . هي وردة بعينها ولا يوجد في الشرق كله ند لتلك الفتاة المصرية . ولو كان اليوزباشي ابصرها لكان عرفها لساعته

فقال غوران . ان اليوزباشي سار منذ ثلاثة ايام الى الاسكندرية لقضاء مهمة للقائد الاكبر وسيعود الى هذا المكان قبل عودة الليل فيجب اذن ابقاء هوءلاء الاشخاص المشتبه بهم في حوذتنا ...

قال فولافوان . ان معاملتنا لهم على هذه الصورة تعتبر استبداديه وانت تعلم ان بونابرت لا يتساهل عند روءيته مثل هذه الامور

ــ ولكن يمكننا ان نقنعهم بالبقاء عندنا باعذار شتى ريثما يعود اليوزباشي

ــ لا يمكننا اجراء هذا الامر قبل ان نعرف الجهة التي انطلقوا اليها

فقال ماستيك . ها هم قادمون الينا فلا تتحركوا

ولما قال هذا الكلام التفتوا فابصروا فرسانا قادمين اليهم من ناحية كثيب الرمل وقال غوربي . انهم اتون بانتظام كأنهم من رجال تلسون اهلكه الله

وحين وقعت انظار الفرسان على جنود الفرنساويين ترددوا في التقدم ولكنهم لم يروا لهم بدا من الدنو منهم وكانت قافلة اولئك الفرسان موءلفة من مملوك مدجج بالاسلحة يسير في المقدمة ووراءه اربعة فرسان شاكي

السلاح ثم امرأة مقنعة والى جانبها شيخ طاعن في السن وكل منهما يستند الى الاخر وخلفهما خمسة مماليك يسيرون صامتين ومطرقين الى الارض

ولما نظر الضابط الفتاة المصرية اضطرب اذ عرف من وراء البرقع انها كانت وردة وناجى نفسه قائلا . تبا للقدر الذي صير هذه الحورية الى هذه الحال من الهزال . ثم انه التفت الى طريق الاسكندرية لعله يبصر رايموند بارسفال عائدا

واوقف ماريول تلك القافلة فهاج هائج مراد وعرض له ان يهجم على الفرنساويين مقتحما المخاطر ويبطش بهم ثم يفر بسرعة البرق الى ناحية ابي قير او الى جهة الجنوب مميمار شيد بطريق البيضة الضيقة الفاصلة مريوتيس عن المهدية ولكنه عاد وتأمل فرأى عدد الجنود الفرنساويين كبيرا وتحقق انه لا يقدر على الايقاع بهم جميعا فاذعن للقدر ووقف امام الفرنساويين فقال غوران لفولافوان وقد اشتد اضطرابه . اسأله

فسأل فولافوان الشيخ باحترام قائلا له ما اسمك

— اسمي منصور وانا حاجب ابراهيم بك شيخ البلد

— نطقت بالصواب فان الجواز الذي بيدك يحقق صحة مقالك

ثم انه التفت الى مراد وسأله بلهجة لا تشتم منها رائحة الاحترام . وانت ما اسمك . فلم يرد مراد ان يجيبه على سؤاله لو لم يشير اليه منصور بوجوب الجواب فاجاب بعجرفة

اسمي مراد وانا نائب الامير مراد بك

فقال غوربي . اين لقيت هذا الرجل المنتشرة عليه علائم الخبث

فاجابه ماستيك . هذا هو جريح الكرنك وهو يبغضنا بغضا شديدا .

الا تراه يرشق بمقلتيه سهام الحنق على غوران الهائم بهذه المخلوقة الحسناء

وكان فولافوان يعالج على غيرجدوى ان يحمل تلك القافلة تحط رحالها عند الحوض بيد ان الحاجعل مراد يلج بطلب استئناف المسير وكان بونابرت قد اصدر اوامرمشددةبوجوب رعاية حرمة المماليك لانه كان يميل الى خطب مودتهم واستمالتهم اليه ولذلك اضطر غوران الى الرضى برحيل القافلة مع ما كان يجول في فؤاده من الرغبة ببقائها . وكان جميع الجنود يعلمون السبب الذي يحمل ذلك الضابط على الحاجة ببقاء تلك القافلة لانهم جميعهم كانوا يشاطرونه محبة رايموند بارسفال الذي مع هجره صفوفهم للتقيد بخدمة القائد الاكبر كان باعماله الخطيرة وجرأة مقدمه قد جر اليهم المجد والفخار . وكانوا يعلمون ايضاً بنوع مبهم ان حادثة محزنة جعلت حياة اليوزباشي هدفاً للخطر . وكانوا يسائلون نفوسهم هل وردة هذه هي المرأة السرية التي دخل بارسفال عكاء لاجلها . ولما تحركت ركاب تلك القافلة كان الجنود ينظرون اليها بخزي يمازجه شيء من القلق والاضطراب فقال غوربي . يجول في ذهني انه يحسن بنا ان ننفذ رسولا الى الاسكندرية ليطلع رايموند على واقع الحال

فقال فولافوان . باي حق نجري هذا الامر وكيف نقول له عما خامرنا من الظنون

— بناء عليه يمكنا ان ننتظر قدوم اليوزباشي عند المساء فنخبره كل شيء ويبقى لدينا الوقت الكافي للحاق بهم فهم لا يقدرون ان يبعدوا كثيرا في هذه المدة القصيرة ولليوزباشي مائة وخمسون دليلا يأتمرون بامره

فقال غوران . لا يعودون على اعقابهم لانهم عرفونا

ــ كان من الممكن ايقافهم بحجة استنطاقهم عن مقتل روبين

ــ ان ما قرره القائد ديزه لايستطيع ماربول نقضه

ــ وغوربي ذاته لا يمكنه نقض هذا الامر

وكان قد اثر ذلك اللقاء بمراد تأثيرا سيئا فاعمل في شاكلتي جواده المهماز الا انه لم يلبث ان غض من سيره مراعاة لمنصور الشيخ ووردة الضئيلة الجسم

ووقفت القافلة وراء انقاض قصر قيصر الروماني لتعقد مجلسا في مــا ينبغي لها اجراءوه فجلست وردة على طنفسة وضعوها لها في الظل وانفرد منصور ومراد وعبدالله للمداولة فقال مراد • انها عرفت ذلك الضابط الملعون وهي تؤمل الاجتماع باليوزباشي الذي انقطعت اخباره بعد رفع الحصار عن عكا

فقال منصور • ما تظنه يمكن ان يكون حقيقيا فان صمتها والقلق البادي في عينيها يدلان على تجدد امالها واظن انه يوافق ان نأخذ زورقا ونعبر بــه بحيرة المهدية تضليلا للفرنساويين عن اقتفاء اثارنا

فقال عبدالله ان اليوزباشي لم يكن مع رجاله فهو اما غائب واما ميت ولو اطعناهم ووقفنا حين طلبوا منــا الوقوف لكانوا اسرعوا الى البحث عنه والمجيء بــه الى حيث كانوا لانني لاارتاب ابدا في انهم عرفونا

ــ ولماذا ارادوا ان يبقونــا هذا المساء عنــد الحوض ••• فلو كان اليوزباشي غائبا لما كان الضابط الشاب يتجاسر على اصدار الاوامر الجازمة•

فقال منصور • وكيف كان الامر فلــا امع معرفتهم لنا مستهدفين للخطر فابراهيم قد انفذني الى بونابرت بمهمة خصوصية وهذه المهمة بمثابــة تعويذة

تقينا شر الانس والجن وفضلا عن ذلك فهؤلاء الجنود لم يكونوا في حملة سوريا وهم لم ينظروكم الا في مصر العليا . وكيف انتهت اليهم اخبار الخصام الذي جرى بينك وبين زعيمهم في عكاء فلم يبدد ذلك الكلام غيوم الشك عن جنان مراد الذي اشار باستئناف المسير قائلا . ننام الليلة في العريش قبل ان يقطع بعد يومين فيضان النيل الطريق علينا بهدمه الحواجز واملائه الاقنية وسننجو على الاقل موقتا من شر هؤلاء الكلاب الملاعين

ومع ما كانت عليه وردة من الضعف سار تمعهم صامتة دون ان تنوه بكلمة تذمر ووصلت القافلة الى وكانت الطريق في بعض المواضع طريق الرحمانية وعبرت قناة الاسكندرية وتوغلت في البرزخ الضيق الفاصل بين بحيرة ابي قير وبحيرة ماريوتيس صعبة المسلك تحاذي القناة وليس فيها ادنى نخلة ترد اشعة الشمس المحرقة عن المارة فشعر منصور بالاعياء ولبثت وردة صامتة وكانت تجل طرفها في تلك المستنقعات الكامن الموت فيها . والمنعكسة على صفحها رسوم اطلال القرى والابراج القديمة العهد ولما مالت الشمس الى المغيب كانت القافلة قد وصلت الى تل الجنان ومن هناك توجهت الى ناحية البيضاء سائرة على طريق سهل . وكان مراد يلتفت الى الوراء من حين الى اخر باحثا بنظره في ذلك البر الفسيح . ولما لم يكن يبصر احدا كانت السكينة تثوب اليه وتحقق انه لم يكن احد جادا وراءهم ولم يلتقوا في طريقهم باحد من جنود الفرنساويين قاطماً ن بال مراد وتأكد انهم يستطيعون الوصول الى كفرسليم سالمين

ولما غير فولافوان مراكز الخفراء ابقى لديه بعض رجاله وقال لهم . من الممكن ان اليوزباشي يطلبكم عند وصوله فكونوا متهيئين لتلبية اوامره .

وقال غوربي لماستيك . تحدثني النفس انا سنسير هذه الليلة الى المعسكر اطاعة لامر حبيب تلك المصرية الحسناء. الا تذكر ما جرى في الكرنك

فقال ماستيك . عندهما اخبارشتي يرويها الواحد منهما للاخر بعد افتراقهما الطويل. والساعة الرابعة مساء عاد بارسفال الى حوض الجامع يصحبه محمد الذي لم يكن يشاء مفارقته البتة لاعتقاده ان اليوزباشي لا يلبث ان يندفع وراء مراد طالبا اغتياله وبقي صفد في سوريا يبحث عن اثار مراد التي ضل عنها في بيروت حيث كان رفيقا وقد انفذاه اليها من عكاء

فتلقاه غوران ببهجة صادقة وهتف رجال فولافوان لضابطهم القديم فاجرت هـذه المظاهرات دموع الافتخار من مقلتي بارسفال الذي لم يرد اخفاءها بل تركها تجري على خديه الشاحبين . وكان كل من غوربي وماستيك يهمس في اذن الاخر متعجبا من ذلك الهزال البادي على محيا رايموند وبينما هما يتساران قال ماريول . يعز علي وايم الله ان ارى مثل هذا الشاب الغيساني في هذه الحال المثيرة الاسف من رقدتنا ولعمر الحق اني لا اتردد طرفة عين عن تجريع اولئك اللئام الذين مروا بهذا المكان كؤوس الحمام مترعة الى اصبارها ....

— واذا دام هيامه بتلك الظبية مدة طويلة لم تر لنا ندحة عن المجيء اليه بتلك المرأة الفتانة التي مرت بنا منذ هنيهة من الزمان ... وهي لا تزال قريبة منا ...

وقال فولافوان . ان الجواز الذي مع تلك القافلة صادر عن بيروت... ومن المحتمل ان يكون قد جرى بينهما في سوريا شأن من الشؤون ومن الممكن ان تكون هي نفسها ... .

— وهذا يدلنا على سبب هزالها كليهما ... هلم بنا نخبره ....

— احبس لسانك عن الكلام فان هذا الامر من خصائص الملازم وهو سيخبره ...

— عنا مراة ... انه لا يجسر ابدا على مثل هذا الامر

— لسوف تراه فاعلا ذلك واذاراهن على تحقيق ظني ...

— بناء عليه افتح عينيك وانظر من اليوزباشي تهيجا نظير تهيج البركان

وبينا هم يتحاورون على الصورة التي بسطناها كان باوسفال يخبر غوران انه سمي يوزباشي بدلا منه . وقال له . ان بونابرت يريد ان يعرف اسمك الحقيقي ليذكره في الامر الرسمي الذي يصدره اليك

— اوءثر البقاء ملازما

— لماذا .

— لئلا اتقهقر بسرعة ... فقد ولدت امير الاي ولا استعيد اسمي الا عند صيرورتي جنرالا بعد عشرين او ثلاثين سنة

— ستصيب هذه الرتبة قبل الاجل المذكور . يا ليتك تدري الاعمال الخطيرة التي يدبرها لنا زعيمنا الكبير

— لماذا يريد مغادرتنا عن قريب

فاضطرب رايموند عند سماعه سوءال غوردان والتفت اليه قائلا له بتمهيل . وماذا يجعلك تفترض ...

— قدرت هذا عند روءيتي تينك البارجتين في عرض البحر وبرحت سفن سدني سميث مياه الاسكندرية ذاهبة الى قبرس لجلب ما يعوزها من الموءونة والذخائر واخلت له الجو وان انطلاقك الى الاسكندرية .....

نعم ياغوران ٠ انا منتظر في هذا المكان القائـد بونابرت واركان حربه لنبحر الى فرنسا المحتاجة اليه

ــ انا اعلم ··· فان النكبات···

ــ وان البلاد جميعها تدعو المخلص··· وستوافيني عن قريب ياغوران·

···ففي ارض مصر اترك قسم من قلبي ···

فقاطعه الملازم الكلام واحمر وجهه مما كان يريد اخباره اياه وقال ٠ ان الشيء بالشيء يذكر فان تلك الفتاة المصرية التي يسمونها وردة ···

وقطع كلامه حين رأى الاصفرار يعلو وجه رئيسه ثم قـال لـه ٠ عفوا يامولاي

ــ شكرا لك على ذكر اسمها امامي فان ذلك يريح فوءادي

ثم انه اخبره ما كان من حبـه لوردة وقنوطه ومهمته في سوريا ونجاته عند وردة والليلة التي قضاها على مقربة منها والفشل الذي تلاها واختفاء الفتاة المصرية في ظلمات لبنان

ولما راى غوران تهيجه خشي سوء العاقبة ان هو اوقفه على ما كان يعرفه عن وردة وسأله بتحذر٠ اتريـد ان اكتب اليك اذا عثرت على وردة·· وهل تجيء ····

ــ حالا ··· فان بونابرت لايضن علي برخصة ··

ــ والمجـد الذي ينتظرك في ميادين النزال بالمانيا وايطاليا

ــ لا ابالي بالمجد يا ابني حين يكون الحب بازائه ··· وليتـك تدري مقدار هذا الحب ٠ فلا شيء في الدنيا يمكنه ان يعبر عن اللذة التي اصبتها بقرب حبيبتي الفتانة ٠ ففكر غوران في نفسه قائلا٠ انـه سيهجر

الجندية ليلحق بتلك المرأة ٠٠٠٠٠٠ولذلك فانا لا اقول له شيئا عنها لان واجباتي تقضي علي بذلك

ووصل ماتوريل فقطعا حديثهما وقال ماتوريل لبارسفال ٠ هيأت عدة السفر فيمكنك ان تنزل الى البحراني شئت

— وهل خالج الريب احدا في الاسكندرية

— لا

— يمكنك ان تتكلم امام غوران فانه لا يخوننا

— انا عالم ذلك ٠٠٠ ان الاميرال غانتوم تلقى انباء من بونابرت يستدعيه بها اليه بعد ثلاثة ايام

— بعد ثلاثة ايام ٠٠٠سيكون لدينا وقت كاف — قال الملازم — فسأله رايموند قائلا واي وقت تعني بقولك ٠

فصمت الضابط الشاب ولكن اليوزباشي قال له ٠ كان صفد يمكنه ان يرسل الي رسالة اخيرة ٠٠٠٠اين بونابرت

— في منوفه بالدلتا ٠٠٠ واذا قال لك صفد الحكيم انها وجدت فماذا تفعل

— ابقى هنا

— اتخالف اوامر بونابرت

— ابقى برضاه

فالتفت غوران الى ماتوريل ملقيا عليه نظرة معنوية فدنا منه هذا الاخير وهمس في اذنه قائلا له ٠ اذا لم يوفق الى وجدان هذه المرأة ضالته المنشودة اختل شعوره

فحينئذ باح غوران لماتوريل بكل ما يعلمه عن وردة فقال لـــه الطبيب برصانة · اعلم ياصاح اني منذ وطأت بقدمي تربة هذا الشرق وعاشرت فيه اهليه صرت اعتقد بالقضاء والقدر مجاراة الشرقيين في اعتقادهم فوردة بنزولها في هذا المكان تريد ان تشعر بارسفال بقربها منه ولذلك يجب ان يقف على حقيقة هذا الامر

— وهل ينبغي لي ان اطلعه على هذا الامر بتحذر

— لا حاجة الى التحذر في مثل هذا الموقف فالمفاجأة افضـــل علاج لتسكين التأثر

وجاء ماتوريل وغوران بارسفال واخبراه عما يعلمانه عن وردة فلم ينظراه يهيج كالبركان كما كانا ينتظران لان الوقت كان ليلا ولكنه امر بعض رجاله باقتفاء اثار وردة ورفاقها · وقد عادت اليه السكينة التي كان يشعر بهـــا في عكاء فقـــال · ان محمدا يقـــدر ان يكتشف اثارهم فهو ماهر جدا في هذا الامر ··· ياغوران ارسل معي عشرة رجال وسننطلق بعد ساعة من الزمان·

فقال فولافوان · ولماذا لا ننطلق لساعتنا

— ولكن المؤونة ··· والقذائف ··· والنظام الجندي ····

— كل هذا مهيأ ورجالنا مستعدون منذ وقت طويل

— وهل استدركت

— اعلم انك فرنساوي وان المرأة التي يظلمونها نظير وطني يعتدون عليه ··· وانه يجب الدفاع عنها ·····

وقال ماريول · لا يكفي ذلك بل يجب اللحاق بمختطفيها

فاراد بارسفال الشكر لهم على مشاركتهم له في عواطفــه ولكنه لم

يستطع ذلك من جراء شدة تأثره

البرج الروماني

١٩

وكانت تلك الليلة حالكة الاهاب باردة الهواء موحشة للقلوب وكانت القافلة تسير تحت جنح الدجى ٠ فقال عبدالله اني وايم الحق لا ادري اين صرنا فيجب ان نسأل سليم عن اسم المحل الذي وصلنا اليه ٠ وكان سليم يعرف تلك الاماكن ٠ فقال لـه ٠ اقتربنا من البيضاء ولم يبق لنا بيننا وبينها سوى نصف فرسخ ٠ فعلى يميننا كوم العرب وهي بيد الفرنساويين

فقال مراد ٠ ارى ان نقف في هذا المكان لا ن منصور ووردة يكادان يرزحان تحت عبء الاعياء ٠٠٠ ياسليم هل تعرف في هذا الموضع محلا يمكننا ان نلجأ اليه

— يوجد هنا بعض الانقاض على ضفة القناة

— لا يوافق هذا الموضع ٠٠٠ اتعرف موضعا اخر معتزلا

— على ضفة بحيرة ماريوتيس البعيدة عنا نحو مائة خطوة يوجد البرج الافرنجي ٠٠٠

— سر بنا اليه لنقضي ليلتنا فيه ٠

وسارت القافلة الى الناحية التي اشار اليها سليم ٠ وكانت تسير بحذر عظيم فقال سليم تحذروا فان القناة تفيض في هذا المكان الا تسمعوا هدير الماء

ووصلوا الى موضع فيه برج مستدير يعلوه بناء مربع . وكان ذلك البرج مبنيا على حافة القناة ولم يكن الزمان ولا فيضان الدلتا السنوي قد تمكنا من الاخناء عليه وكان ذلك البرج في عهد الرومانيين حصنا حصينا يقيم فيه الجنود للمحافظة على البرزخ وسد الطريق بين القاهرة والاسكندرية . وفي الحروب الصليبية رمم ذلك البرج وتدل الآثار ان ذلك الترميم جرى في القرن السادس عشر . وكان البرج المذكور ملجأ ملائما لتلك القافلة فادخلوا الجياد الى الطبقة السفلى وصعدت وردة الى البناء المربع الآنف الذكر يصحبها منصور الشيخ اليه

وقال الشيخ . وماذا نفعل اذا دهمنا فيضان القناة

فقال المملوك يمكننا ان نصل دائما الى كوم العرب فخيلنا متعودة عبور النيل في اعمق مواضعه . وقال مراد ليس لدينا موضع اخر نلجأ اليه افضل من هذا الموضع

وبينا القافلة تسير الى الامام سمع وقع اقدام في المياه . فقال مراد . اسرعوا بنا فان الارض تخشع تحت سنابك الخيل وكادت المياه تغمر ركابها ولما وصلوا الى اسفل البرج قذف مراد ذلك البرج باللعنة لان المياه كانت قد غمرت مدخله الواطيء وقال . لا بد لنا من دخوله مهما تصدى لنا من المصاعب

فقال له منصور . واذا نحن دخلناه لان حصرنا فيه غدا واصبحنا كاننا في احبولة الا ترى الماء يعلو بابه

فقال مراد لا بأس من ذلك فاننا نكون فيه امنين على نفوسنا اكثر مما نكون في سواه

ـــ وماذا تفعل اذا فاجأنا العدو

ـــ لا شيء يدلنا على ان خصومنا لا يجروا وراءنا

فاضطربت وردة عند سماعها ذلك الكلام وبعد قليل من الحين دخلت الخيل ذلك البرج وصعدت فيـــه الى مكان لا تصل اليه المياه ورقي منصور ووردة ومراد الى البناء المربع وهيأوا كل شيء للرقاد ٠ وبعد ساعـــة من الزمان توقف المد ولكن المدخل بقي مخبأ عن الابصار ومجهولا بنوع انه لم يكن احد يستطيع الاهتـــداء الى مقرهم ٠ فقال مراد ٠ نقدر ان ننام براحة بال دون ان نقيم خفراء يسهرون علينا

ـــ وهب جاء الفرنساويون وراءنا فماذا نفعل

ـــ ذالك مستحيل

ـــ أ انت متحقق ذالك

وكانت عينا الشيخ موجهتين الى ناحية تل الجنان وانظار مراد وعبدالله مصوبة الى البرزخ ٠ وكانت السكينة ناشرة اعلامها فوق ذلك الليل البهيم الا ان نورا ضئيـــلا كان يسير على مسافة ثلاثة ارباع الفرسخ بين القناة وطريق القوافل وكأن حامل ذلك النور يسير وراء اثر فقذف مراد باللعن والسباب وامر رجاله ان يحشوا بنادقهم ويهيئوا اسلحتهم لانه عرف من ثيابهم بعض جنود فرنساويين كانوا يسيرون حول النور

فقال منصور ٠ لا يدلنا شيء على انهم يجدون وراءنا ومـــن الممكن ان يكون هؤلاء الجنود عساميما البيضاء او كفرسليم

وقال عبـــدالله ٠ وهب كانوا يطلبوننا فان اثارنا تختفي امامهم تحت الماء ولسوف يظنون ان زورقا نقلنا من ضفة الى اخرى في البحيرة او انا ثابرنا

على المسير الى ناحية الدوار ولسوف يمرون على مقربة منا دون ان يشعروا بوجودنا

وكان النور يقترب من البرج شيئا فشيئا وصوت غوربي وفولافران يسمع اعلى من عجيج الامواج ٠ وحين وصلوا الى شاطئ البحيرة صاح محمد بصوت يكاد يخنقه وقال ٠ ان الآثار اختفت تحت مد البحيرة ٠ فقال له الجاريش ٠ وهل امّوا كوم العرب

— لا ولكنهم نزلوا في احدى الجزيرات بالبحيرة بين القناة وسد الاسكندر

— وماذا فعلوا بجيادهم

فحار الاعرابي في امره وقال يجب الاسراع الى البيضاء وكوم العرب لنتحقق مرورهم بهما

فقال رايموند وكاد يتمزق من الحنق ٠ بناء عليه سأسبقكم انا وماتوريل ٠٠٠٠٠٠

فقال الطبيب ٠ لا فائدة من ذهابنا لان الفارين اما نزلوا في بحيرة ماريوتيس عينها واما توجهوا الى البيضاء ولكن الافتراض الاول يبين لي مستحيلا لانهم ماذا فعلوا بخيولهم

فقال بارسفال وقد ساءه ذلك الوقوف ٠ ساروا امامنا ولا مراء وبناء عليه فلا بد لنا من الاسراع في المسير

واصطف الجنود على شاطئ البحيرة وكان محمد يحمل المصباح ويسير بين رايموند وماتوريل والمملوك ورفاقه ينظرون من اعلى البرج حركات الفرنساويين ٠ وكانت طريق البيضاء تتجه الى ناحية الغرب وقبل

التوغل عليها الى جهة بحيرة المهدية كان يجب ان يمر سالكها على مسافة مائة متر من البرج الروماني

وكان قلب مراد يخفق في صندوق صدره حتى يكاد يكسره وحدث ان محمدا ادار المصباح الى جهة وجه بارسفال فرآه مراد وقال بصوت يكاد الغيظ يخنقه هو . هو . بعينه . ولم يكد يلفظ تلك الكلمة حتى كان بارسفال قد استأنف مسيره مجاوزاً ملجأ وردة التي افلتت من بين يديه ولم يعد له امل باستعادتها ...

وسمع للحال صوت قوي مزق الفضاء صائحا . يارايموند ...

فقد كانت الفتاة المصرية مستندة بذراعها الى النافذة الضيقة فوق رأس المملوك المنتفض من الحنق انتفاض عصفور بلله القطر وقد عرفت حبيبها ونادت مستعينة به . فزأر مراد وقد فار فائره وهم بالايقاع بوردة ولكن منصور تصدى له ومنعه عن افراغ كأس انتقامه عليها قائلا له . افتكر بالدفاع عنها الا ترى الفرنساويين فقال المملوك ومراجل الحنق تغلي في فؤاده . اني هذه المرة ساسوق الردى الى هذا الرجل

قال هذا وتناول بندقيته ودنا من كوة صغيرة تشرف على المحل الذي فيه الفرنساويون وكان رايموند قد سمع نداء وردة فوقف وامر رجاله بالوقوف قائلا لهم . انها هناك وقد سمعت صوتها وعرفته .... اسرعوا وتوني بزورق والا قذفت بنفسي الى الماء ... فقال ماتوريل . ان عملك يعد من باب الحماقة فانتظر الى الصباح

— انها تبتعد عنا كثيرا

— انت مخطئ في ظنك فمحمد يحقق بان الصوت آت من محل عال

جداً فلا بد من ان يكون على مقربة منا انقاض وبناء مرتفعة تحيط بها المياه وقد ابصرها احد رجال غوران منــذ بضعة ايام حين كان في هذه الارجــاء للارتياد

فقال غوربي · هاءنذا اوقــد ناراً يضيء نورها ما يجاورنا من الامكنة ولم يكن الا القليــل حتى جمع هووماستيك بعض السماد والهشيم واوقد ناراً انبعثت منها في بدء الامر الدخان اكثر من النور فبان لهم البرج بكل وضوح وبينا ينظرون اليه ويتفحصونه اطلقت ثلاثة عيارات نارية مرت بجانب رأس بارسفال لانه هو المقصود بتلك المفاجأة

فقال بارسفال · هذا اشهار حرب منظمة اخمدوا النار لئلا تدلهم علينا ولا تجدينا نفعاً واياكم ان تقابلوا المثــل بالمثل باطلاقكم النار الى ناحية البرج فصــاح ماتوريــل · الحمد لله على سلامتك يابارسفال ··· فلا اكتمك اني خشيت على عقلك من الاختلال

فصافح بارسفال ماتوريل وغوران وقال لهما انا ناعم البال الان وانا آمل انه لا يمضي علي ثلاثة ايام حتى تصير وردة في حوزتي · وحينئذ التمس من بونابرت ان يأذن لي باستصحابي اياها الى فرنسا لانها فرنساوية ··· ولاننا لا نترك شيئاً من فتوحنا في الشرق·

فادار غوران رأسه وجرت من مقلتيه عبرات على خديه · وشعر بان اليأس يدنو منه ···

وكانت تلك الليلة طويلة الاطراف على الفريقين وكان مراد يشعر بنيران الغضب تتسعر في فؤاده وهو نظير الوحش الضاري المحصور في قفصه · وقد فكر في الانتقام بطريقة هائلة ·· وعزم على الابتداء بوردة وكان منصور

راقدا من جراء ما ناله من التعب

ولم تكن تبدو على الفتاة المصرية علامة الحياة فاعتزلت في الموضع الذي خصصوه لها ولبثت صامتة صمتا وحشيا ولم تكن تلقي لها بدا من السهر وراء كوة البرج وقد شعر مراد بانها مستيقظة وقال في نفسه · غدا ينتهي كل شيء بيننا · وقبل طلوع الفجر بمدة قصيرة انحدر منصور الى حيث كان مراد مقيما وقال له · لولا تعديك هذه الليلة لكنا تمكنا من المرور بكل حرية · فانا نائب ابراهيم · واما الان فقد فقدت ذلك الحق لاننا بادأناهم باطلاق النار عليهم وهم لم يكونوا قد اعلنوا لنا العداء ولهم الحق بان يسألونا عن هويتنا

وماذا تعني بهذا الكلام

اعني بذلك اني انا وحدي في هذا الموضع نائب شيخ البلد ولي وحدي دون سواي الحق باصدار الاوامر وقلبي لا يرهب المنية وان هم ارادوا خطف وردة منا بالقوة امرتك بالدفاع عنا ولكنني انهيك عن اتيان امر من الامور دون استشارتي فكسرت كلمات منصور التي نطقها بثبات وسكينة عجرفة مراد وحدته فقال · اطيعك في كل شيء ما عدا تسليم وردة لهؤلاء الكلاب

— ان المسألة لا تتعلق بتسليمنا على هذا الشرط ولكن خفف من حدتك ومن حبك ··· ولما تبلج الفجر كشف ستار الظلمة عن موقف الفريقين فكان المماليك مستترين وراء جدران البرج وامنين شر هجوم الفرنساويين عليهم لان هدم ذلك البرج كان يقتضي مدافع كبيرة وفضلا عن ذلك فان وجود وردة فيه كان له بمثابة ترس متين · ولم يكونوا يخشون شيئا الا من نفاذ المؤونة التي لديهم والتي لم تكن تكفيهم اكثر من يومين وبناء عليه

كان ينبغي لهم قبل الوصول الى تلك الحال ان يدبروا لهم وسيلة ينجون بها

وكان رجال بارسفال نازلين في البرزخ وكانوا يمكنهم ان يعتمدوا على مراكز البيضاء وكوم العرب في دفع غارات الوطنيين عنهم . وكان فولافوان اغتنم الفرصة من ذلك الليل البهيم واقام استحكاما يسد كثيب الرمل الذي يقدر ان يتصل به المحاصرون من البرج الى اليابسة . بقي لديهم افتراض درب المماليك بطريق البحيرة على متن رمث الا ان هذا الامر لم يكن ميسورا لمراد لان بارسفال كان قد امر رجال كوم العرب ان يركبوا بعد ظهر ذلك النهار زورقا مسلحا ويقيموا في البحيرة بمكان لا يصل اليهم فيه رصاص بنادق المماليك . وعلى هذا النمط كان البرج محاطا من كل الجهات وكان الفرار منه مستحيلا

وكادت امال المماليك تتداعى في ذلك النهار الذي اشتد فيه الحر وارتكب مراد هفوة ثانية باهانته الرسول الذي انفذه اليهم رايموند بطريق الكثيب يقترح عليهم اخلاء سبيل وردة لتسير الى شاءت بخفارة منصور ورجلين من مماليكه . فعنفه منصور على عمله لانها اياه على اهانته اناسا هم تحت رحمتهم

فتجلد مراد محاذرا من عواطف نائب ابراهيم ولبثت وردة جامدة وقد ابت تناول ادنى طعام او شراب وكانت جالسة امام الكوة وعيناها شاخصتان الى رايموند الواقف بين جنوده على مسافة مائة خطوة منها ولكنها لم يبرز من الكوة للعيان لان الحياء كان يمنعها من اتيان ذلك الامر . ولم تعد فيها الجرأة التي كانت فيها حين كانت في الكرنك ولا الجسارة التي كانت تقاوم بها مرادا حين كانت في قصر الجزار . ولما كانت مقاومتها

لعواطفها او على الاقل لابـداء اشارة خفيفة لبارسفال موءلمة جدا لها تولتها حمى اشتدت وطأتها عليها فقضت ليلة نابغية ولم يفارق منصور وسادتها وكانت تسمع حركة الزورقين اللذين طلب مجيئهما من تل الجنان يدوران حول البرج غير مبالين بتهديد المماليك ورصاص بنادقهم

وقال بارسفال لغوران · لا اريدان يكلفنا الاستيلاء على وردة حياة رجل واحد من رجالنا سانتظر الحين الذي يضطر فيه المماليك الى التسليم·

ــ واذا استدعاك اليه بونابرت قبل الحين المذكور ···

ــ ان ذلك الامر مستحيل لانه لا يمكنه ان يصل الى المرفأ الذي نبحر منه الا بهذا البرزخ وهذه الطريق وهب وصل الى هذا المكان قبل الاجل المعين فاني ابسط لديه واقع الحال

فقال ماتوريل · واذا احدق الخطر بحياة وردة من جراء الجوع··

ــ اتظن ·······

ــ انا في موضع رديء المناخ···فلا ينبغي ان التعب والحمى ····

ولم يكمل الطبيب كلامه ولبث بارسفال صامتا وعوامل الجزع تتنازع فوءاده ولما اوشكت الشمس ان تغيب ارسل غوربي الى المماليك يدعوهم الى التسليم فاسرع الرسول الى ناحية البرج وهو رافع على حربة بندقيته منديلا ابيض ولما لم يبق بينه وبين البرج سوى ثلاثين خطوة على التقريب صاح بصوت عال سمعه المماليك والفرنساويون في البرزخ وفي الزورقين وقال · ان قائد الجنود الفرنساويين يعلن للحامية المقيمة في البرج ان لديه طبيبا فرنسويا ماهرا مستعدا لمعالجة المرضى والجرحى حيثما كانوا واذا كنتم لا تفهمون كلامي فاليكم هذه الورقة المكتوب فيها بالتركية معنى الكلام الذي القيته

على مسامعكم وهاءنذا اقذف اليكم من النافذة بالورقة المذكورة مشدودة الى حصاة مقدسة جئت بها من النيل .

ورمى غوربي الورقة بخفة وحذاقة فوقعت في البرج وبعد هنيهة من الزمان برز منصور وانحنى من كوة البرج ليخاطب الرسول الفرنساوي فقال هذا في نفسه يجب التحذر من هذا المرء لئلا يغتالني على غرة ... ولكنني ارى علائم المهابة منتشرة على هيئة هذا الرجل الطويل اللحية ... واظنه يستعد لمخاطبتي بالعربية ... وانا لا افهم منها كلمة واحدة ... ولكن منصورا جمع افكاره ليتذكر ما كان يعرفه من اللغة الفرنساوية وخاطب الرسول بما يأتي . ان فرسان المماليك يشكرون للقائد الفرنساوي كرم اخلاقه ويجيبونه بانهم غير محتاجين الى علاج الطبيب الا انه توجد معهم امرأة تشعر بالآم يزداد في الليل وان منصورا يطلق له ثلاثة عيارات نارية في الفضاء كعلامة متفق عليها وحينئذ يدلي سلم من الحبال فيصعد عليها الطبيب الى البرج . واقسم الشيخ بشرفه وبحياته انه لا تمس شعرة من رأس الطبيب وانه يحافظ عليه محافظته على ولده . وقال له ايضا يمكنه ان يستصحب رجلا يحمل له المصباح

فاجاب غوربي منصورا بانه سيحمل جوابه الى القائد ثم ودعه وعاد الى بارسفال وقص عليه ما دار من الحديث بينه وبين منصور فاشتد قلق بارسفال وقال ان وردة ولا محالة مريضة جدا فيجب عليك ياماتوريل ان تنطلق لمداواتها وانا احمل لك المصباح على الطريق ...

فقال ماتوريل . ما اشد هذا الرأي . اتريد ان يبطش مراد بي وبك ...

— اني اتنكر

— لا يجدي التنكر شيئا فلا بد من ان يكونوا قد فطنوا لحيلتك قبل دخولها ذهنك وهم سيرتابون برفيقي اكثر مما سيرتابون بي وعليه فلا بد من النظر في غير هذا التدبير

وكان مرادسا كنا في ملجأه الحصين ونيران الجزع والانتقام تستعر في فؤاده والفتاة المصرية تهذي من جراء اشتداد وطأة الالم عليها . وكانت من حين الى اخر تلفظ اسم رايموند ولم يشاء الشيخ منذ ذلك الحين ان يعاكس وردة في عواطفها واميالها . وناجى نفسه قائلا . اذا طلبت مني رؤيته ذهبت اليها بذاتي واتيتها به غير مبال بمراد وحنقه . واذا اضطررت حبسته في حجرته لمنعه عن الفتك بذلك المسيحي . وعند نصف الليل زاد هذيان الفتاة وبدت عليها اعراض مزعجة فاخبر منصور ابن اخيه عن حالة وردة وقال له . اريد ان استدعي الطبيب

— وهل حالة وردة تقلق البال

— انا خائف . . .

— فتكن مشيئتك . . . ولكن اذا جاء معه مغويها في الكرنك وعكاء قتلته لساعتي

— وكيف تظن انه يخطر على باله . . .

— لو كنت في مكانه لفعلت هذا الامر

فطلب الشيخ من مراد ان يسكن روعه قائلا له . ماذا يهمك حضور هذا الرجل فانا لا افارق وسادتها

— قلت لك الشرط الوحيد الذي يمكنني الرضى به وآلا امتثال لارادتك

فيجب الا يدخل هذا الملعون البرج واذا دخله لم يخرج منه حيا

— وعدتهم وعدا ثابتا

— ان وعدك لا يتناول هـذا الرجل الذي جر الينا العار

— حسنا قلت فاستعد لاستقبال الطبيب · واطلقت ثلاثة عيارات نارية في الفضاء فلما سمعها بارسفال شعربان حملا ثقيلا يرفع عن صدره فقال لماتوريل اسرع لانقاذها ... وخذ معك غوربي · وقد كنت موقنا ان الشيخ سيدعوك لمعالجتها

— ثق باني اصف لها العلاج الذي يطفىء لهيب الحمى عنها والفظ لها الاسم الذي يشفي قلبها وانطلق الطبيب يصحبه غوربي · ولما انتهيا الى البرج وجدا مرادا وعبدالله على حبل انتظارهما فسأل مراد الطبيب وهو يشير بيده الى غوربي · من هو هذا الرجل

وقبل ان يجبه ماتوريل على سؤاله كان هو قد فحصه فحصا مدققا وعلم انه لم يكن خصمه الذي سلب منه قلب وردة واكتفى بان يدعوهما قائلا هلما · اتبعاني

وتسلق السلم المنصوبة بين الارض وكوة البرج وتبعه ماتوريل وغوربي وبقي عبدالله عند اسفل البرج وبندقيته بيده يسهر على من في البرج

وقال المملوك للطبيب · ها انذا اسير بك الى منصور وهو يدخل بك على المريضة · وان كانت حياتك عزيزة عليك فحذار من ان تفوه امامها بذلك الاسم الملعون

— ان استقبالك لي على هذه الصورة غريب الا ان صوت الواجب هو اقوى من صوت وقاحتك وهذا من حسن الحظ

ــ واي حظ تعني بكلامك

ــ حظ وردة

ولفظ الطبيب هذه الكلمة وهويرشق مرادا بنظرة احد من السهام ٠ وقال مراد مشيرا الى غوربي ٠ فلينتظر هذا الرجل في الطبقــة السفلى من البرج ٠ فقال غوربي مهلا يا صاح فان واجباتي الجندية تقضي علي بان اكون امام الباب الذي يدخل منــه رئيسي ويغلق وراءه

قال هذا الكلام بلهجة جازمة وسار وراء ماتوريل وهو ينظر يمينا وشمالا ليتبين هيئــة ذلــك البرج ٠ فبصر بالمماليك راقدين على الحضيض وذهب مراد الى النافذة التي كانت فوق رأس عبدالله وجعل يسرّح طائر طرفه في الفضاء وفي وسط ذلك الليل الحالك

ولما دخل ماتوريل على وردة وجدها ملقاة جامدة على مضجعها وعيناها مطبقتان وكانت تلفظ الفاظا متقطعــة خالية من المعنى ٠ وكان جمالها الرائع قد تحول الى اصفرار الموت فتوســل منصور الى الطبيب قائلا له بتنهد عميق انقذها وانا اعطيك ما تطلبه مني

ومما زاد في اضطراب منصور روءيته وجه الطبيب المتقع وكآبته الشديدة ٠ فسأله بخوف عظيم عن حقيقة حالها فاجابه ماتوريل ٠ اذا لم تخرج هــذه الفتاة من هــذا البرج الملعون قضت نحبها قبل انقضاء الغــد فان مكروبات البحيرة القتالة تجهز هنا على ما ابقاه فيهــا الحزن والاسر من الرمق

فقال منصور ٠ وهل تظل في قيد الحياة الى الصباح

ــ اني اقدر ان ارد لها قواها الى الصباح فقط

— يا ابني. بعيشك انعشها الان وبعد ذلك نعود الى الكلام عما نجريه غدا . وحضر ماتوريل الشراب المنعش الذي جاء به وهو شراب مقو للقلب ومنوم مريح . ولم تكد وردة تتجرعه حتى شعرت بالحياة تعود اليها ففتحت عينيها وابصرت صديق بارسفال منحنيا فوقها . فتبسمت لـه ابتسامـة ودية وسألته بلطف قائلة . كيف حـال رايموند

فتأثر الطبيب من الحب الشديد البادي في سؤال الفتاة المصرية واجابها . غدا . فتبسمت مرة ثانية وغاصت في بحور التأملات ثم نامت نوما هنيئا

فقال ماتوريل . انها ستظل نائمة حتى طلوع النهار وسيعقب يقظتها سلامتها او هلاكها . فانصح لكم بان ترضوا حالا بالشروط الحبية التي يقترحها عليكم زعيمنا . فقال له منصور وقد ادهشته الاعجوبة التي اجراها بوردة امام عينيه وما هي هذه الشروط . فانا ارضى بها على علاتها

— اقرأها

ففض الشيخ غلاف المكتوب واذا فيه ما يأتي

« يا حضرة الشيخ منصور المحترم . رد الي وردة . فاخصص حامية تخفرك لتوصلك الى بونابرت فتبسط لديه مقاومتكم لي وصلابة رأيي . فان هو خطأني اعدت اليكم الفتاة وصرمت حبال حياتي بيدي . »

فقال الشيخ بصوت منخفض . يالله ما هذا الحب الشديد . فانها وايم الحق تكون سعيدة بقربه لانه شجاع وعاقل

فقال ماتوريل . ان الجوع سيبلغ منكم غدا وتموت وردة بين ايديكم .

— لا اريد ذلك ابدا . انتظرني ريثما اخاطب مرادا

— بناء عليه لم يبق لي امل بالنجاح في مهمتي

— لا تخش شيئا من هذا القبيل فانا وحدي صاحب الامر والنهي في هذا المكان . قال هذا وخرج تاركا الطبيب الى جانب الفتاة وكان ماتوريل يرصد حركات وردة فابصر ابتسامة تجري على شفتيها المطبقتين وقال . انها جميلة للغاية وهذا هو سبب هيام رايموند بها ويا ليتني استطيع ان احمل اليه خبرا سارا عنها ... ولما طال غياب منصور خشي ماتوريل ان يكون قد اخفق مسعاه وان يكون مراد قد بقي متصلبا في رأيه . وبينا هو على تلك الحال سمع وردة تتنهد وتقول . رايموند ....

والحق يقال انها كانت تحلم فقال ماتوريل . سقيا لها من فتاة لطيفة فان شرابي المسكن سريع الفعل وها هي الان وردية الوجه وقد نجت...

وعاد منصور وعلامات الرضى بادية على محياه فقبض على يد الطبيب ودعاه الى المسير معه قائلا له . تعال واسمع قسم مراد فقد تمكنت بعد اللتيا والتي من اقناعه بالقبول

وكان مراد واقفا وهو يكاد يهوي الى الحضيض فاعاد القسم الذي اقترحه عليه منصور على الصورة الاتية

« احلف بالقرآن الكريم بان اسلم الفرنساويين غدا عند طلوع الفجر نسيبتي وردة اذا لم يخف احد لنجدتنا من الان الى ذلك الحين وحينئذ يمكنهم ان يسيروا بها اين شاءوا

— وماذا تعني بالنجدة المنتظرة.

— في الليلة الماضية ذهب احد مماليكنا الى بعض الوطنيين يستنهضهم للاخذ بنصرنا ومن الممكن ان يأتوا هذه الليلة ويضطروكم الى الافراج عنا

فقال ماتوريل في نفسه · حسنافعل مراد ببوحه لي بما صمموا على اجرائه فيجب علي والحالةهذه ان اوقف اليوزباشي بارسفال على هذا الامر

وقال منصور متوسلا · يجب ان تقدر عمل ابن اخي حق قدره وتعتبر الانتصار الذي انتصر به على ذاته فان شجاعته تفوق شجاعة البشر

— ستقدر له هذا العمل حق قدره وماذا ينبغي لنا ان نفعله لنقابلكم بالمثل

— اقسموا بشرفكم وبرايتكم ·

— حبا وكرامة

ولما تم العقد بين الفريقين وعزم ماتوريل على العودة الى رفاقه قال لمنصور · وكيف تعطوننا وردة

— تنحدر من النافذة امامكم وامامنا

— سأتلقاها عند اسفل البرج

—لا ارضى بذلك— قال مراد— فقل لزعيمكم ان يأتي بذاته ليأخذها وسيضمن قسمي لكم شهامة نفوسنا وسيرى بنفسه كيف يبر المملوك بوعده وينتصر على عواطفه

فدهش ماتوريل عند سماعه ذلك الكلام وعند رؤيته تغلب المملوك على عواطفه وحدث نفسه قائلا · هؤلاء الرجال اشداء ولسوف يسترجعون البلاد منا حين يبرحها بونابرت · وقد كنت اظن ان هذا الرجل لا هم له الا الانتقام من رايموند ولكن يدلني ظاهر الحال انه يذعن لتصاريف الاقدار · فلو قدر لبلوطرخوس ان يعرف مثل هؤلاء الناس لكان ترك لنا من اثاره القلمية ما يخلب الالباب

ثم انه ودع منصورا وانصرف وكان غوربي ينتظره عند اسفل السلم ···

ولم يبتعدا عن البرج الا القليل حتى سمعا زئيرا يحكي زئير الاسد فان مرادا كان يحرق الارم على طالعه المنكود ويتذمر من الحالة التي صار اليها فقال ماتوريل • ان هذا الرجل تجلد امامي ما استطاع الى التجلد سبيلا ••• وقد حلف بالقرآن وشهد منصور على صحة مقاله

قسم مراد

٣٠

اتحلف لي ياماتوريل بانها كانت تبتسم ••• وانها شفيت ••• وانك سمعتها تلفظ اسمي •••• الا تريد يا صاح ان تعيد على مسمعي كل ما سمعته منها ••• لا تغفل عن ذكر شيء ••• فهل هزلت ••• وهل فارقتها نضارتها •••وهل عرفتك حين ابصرتك ••• وهل لفظت اسمي للحال ••• ولكن هذا النوم ••••وهذه الحمى ••• اكاد اموت خوفا عليها •••

— دعني اعيد على مسمعك الكلام عن وردة فانه يسر فوءادك ولكن قبل كل شيء اخبر غوران ان المماليك ينتظرون نجدة من الوطنيين

— هذا الامر لا يحتفل به •••ولسوف يقهقه غوران ضاحكا عند سماعه مثل هذا الكلام ••• الم تعلم ان ذلك المملوك الذي انقذه مراد الى الوطنيين للاستنجاد بهم قد سقط اسيرا بين ايدينا ••• ولسوف ينتظر مراد رجوعه مدة طويلة ••• ولكن ما لنا ولهذا الامر فحدثني عن وردة

فطفق ماتوريل يقص عليه كل ما جرى له في البرج وكان بارسفال

يصغي الى كلامه وقد حلق في جوالخيال وابتعد عن كل ما يجعله لاصقا بالامور المادية ․ ثم انه قال له ․ وعدتك بالا ابرح مكاني لئلا افسد عليك تدبيرك ․․․ ولو عرفت ان مراداسلس المقادة الى الدرجة التي رأيته فيها لكنت صحبتك ․․․․

ــ ولكنت افسدت كل شيء ․․․ اتظن انه اذعن مختارا لصروف الدهر ․․․

ــ ولكنني لا اريد به سوءا

ــ انك متناه في سلامة القلب يا بارسفال ․․․ ولكن لم يبته شيء الان فيجب علينا ان نتهيأ الى الصباح ولو كنت في مكانك لما كنت امضي الى اسفل البرج لاستقبال وردة

ــ ولماذا ․․․․ فان مرادا ذاته

ــ هذا هو الامر الذي يقلق خاطري فان نظراته وصوته حين قال انه يجب ان تحضر انت بنفسك لاخذ وردة كان فيها شيء وحشي غريب ․ ومن كان في موقفنا لا يأمن شر رصاصته

ــ ان الرصاصة التي تعنيها يقابل مرسلها بالمثل وما عدا ذلك فالقسم بالقرآن عندهم مقدس لا يمكن الحنث به

ــ الم تشاهد في العريش ما اخلف ظنك

ــ ان الامر هنا يخالف الامر هناك لانه ينتهي بهلاكهم وطمس اثارهم وانا متكل على سلطة منصور عليهم

ــ ولكن اعلم انه من الممكن ان ينطلق عيار ناري بدون مشورة منصور يكون ذلك مقدمة لانطلاق عيارات نارية عديدة على اثره

— سترى انا سنكون عزلا

ولم يتمكن ماتوريل من اقناع بارسفال بخطاءه ولكنه عالج تسكين خاطره باتكاله على شهامة منصور ذلك الشيخ الجليل وقال · يجب ان اخبرك ايضا ما اتفقنا عليه شفاها وذلك ممـــا يغير شيئا من شروط بلاغك · ان مرادا يأبى على وردة ان تصحبها حاشية من المماليك وحينئذ يخلو لهم الجوفيسيرون الى حيث يريدون

— وكيف يستطيعون الى الخروج سبيلا فان المدّ يسد مدخل البرج ولا تقدر الخيول على المرور تحت العتبة ·

— ان هذا الامر يعنيهم وفضلا عن ذلك فان الجزر يعقب المد غداحين تفتح سدود الدوار

فلم يكترث بارسفال لذلك الامر المنتظر وجعل يتملل بترديده اسم وردة

وقبل اقبال الصباح بساعة من الزمان سمعوا في البرج جلبة وضوضاء فقالوا انهم يتأهبون للرحيـــل وقال رايموند · لحاهم الله فانهم ايقظوا وردة وازعجوها فقال ماتوريل · ان ساعة استيقاظها لم تحن بعد لان المنوم الذي جرعتها اياه كان قويا جدا وما خلا ذلك فانها في منتهى الضعف لا تستطيع من تلقاء نفسها ان تهب من رقادها · ولما بصر بارسفال تباشير الصباح تبدو في الافق صاح قائلا لهم · سيروا بنا

قال هـــذا وسار في مقدمتهـــم والتفت غوران الى فولافوان وقال له تسلح انت ورجالك وسر في المؤخرة لتنجدنا عند الحاجة اليك

ووصل الضابط الى اسفل البرج وكانت السلم قد اختفت وابصروا شبحا

في الكوة فقال لهم عبدالله · انوردةلا تزال نائمة ولكن يمكن تسليمكم اياها

فقال له رايموند بصوت مضطرب اتينا لنأخذها فدلوا لنا السلم

ــ لا يمكنني اجراء هذا الامرفقد تلقيت الامر بان انزلها اليكم على محفة مصنوعة من سرجين من سروج الخيل وبعض الامتعة التي يتألف منها مضجع وثير لها

ــ وهل حبالك متينة

ــ لقد صنعنا هذه الحبال من وبر الايل وهي في غاية المتانة

ــ لا بأس من ذلك فافعل ماتريد ...

ولما لم يبصر ماتوريل مرادا ولامنصورا ساوره الهلع وقال لرايموند· احقق لك ان في الامر خدعة وان الشيخ يتخلف عن البروز لنا لانه يخجل من العمل الذي يكرهونه على اتيانه·

ولم يكد ماتوريل يفرغ من كلامه حتى ابصر رايموند منصورا فقال له · ها هوذا فسأل الطبيب منصورا عن وردة قائلا له · يامنصور الحكيم يسألك الطبيب عن حالة المريضة

ــ انها في غاية السكون لكنها لا تزال مستغرقة في النيوم يا ابني

وكان صوت الشيخ ممزوجا بالتنهد فان ذلك الفراق كان موشكا ان يسحق قلبه وقد نسي الحاجة الشديدة التي اوحت اليه ان يرضى بتلك التضحية المؤلمة

ــ الا يزال قلبها يخفق خفوقا قويا

فاجابه مراد بصوت يكاد يخنـ ان خفوقه ضعيف جدا وهي باردة كأنها

جثة . فصاح ماتوريل متعجبا . انفعل الشراب المنوم قد طالت مدته اكثرمما كنت انتظر لكنها وحين تستيقظ تكون قد استراحت

فتوسل اليه رايموند قائلا . سنأخذها حالا الى خيمتي

فانزلت المحفة وبعد ان قبل منصور الفتاة على جبينها الذي لم يكن يشعر بشيء قال . ان جبينها باردٌ كالثلج

واراد ان يضمها مرة ثانية الى صدره فقال له مراد . لا تفعل ذلك لئلا توقظها وان اقل حركة تجعل المحفة تسقط على الارض

وصافح منصور مرادا عند سماعه تلك الكلمات الدالة على مودته لوردة وخوفه من فقدانها وقال له . انك لذو قلب كريم وهمة عالية ويحق لي ان افتخر بك

فانحنى مراد فوق المحفة واوصاهم بان يتحذروا لئلا تسقط المحفة من ذلك المكان الذي لا يقل ارتفاعه عن ثلاثين قدما .

وكانت الشمس ترسل اشعتها الذهبية على المحفة فتنير وجه وردة الاصفر ولم يكن منصور ومراد يرفعان اعينهما عنه . وكان غوران يرصد كل حركة من حركاتهما فقال لولافوان ولرفاقه الاخرين . لا يوجد خطر يتهدد حياة قائدهم وتحققوا ان لماليك رضوا مختارين بالتسليم

وكانت المحفة تنحدر شيئا فشيئا الى الارض عند اسفل البرج حيث كان رايموند وماتوريل ورفاقهما ينتظرونها . ولما وصلت تناولوها باعتناء عظيم والقوها على الارض فقال رايموند سرعوا بنقلها واحذروا من ان توقظوها

ولما شاهد بارسفال وجه وردة المصفر قال . يالله ما هذا الاصفرار فبالله عليك ياماتوريل اسرع لايقاظها .

لم يكادوا يخطون بضع خطوات حتى انقلبت الوسادات التي كانت تحت رأسها وتحت جسمها فكادت وردة تسقط . فبادر ماتوريل الى امساكها ولكنه لم يلبث ان ارتعدت اوصاله فامرهم بالوقوف واراد ان يفتح اجفان الفتاة فوجد عينيها جامدتين

وصاح رايموند . ياوردة .... وكاد يجن من شدة الخوف والقلق عليها

فاجابه مراد من اعلى البرج وهو يكاد يتميز من الحنق . يمكنك ان تناديها ايها الملعون ولكنها لا تسمعك

فصاح بارسفال . قد ماتت .. وانطرح على جسمها يقبلها ويندبها

فدل غوران رجاله على الملوك وقال لهم اطلقوا النار على الخائن

فقال لهم مراد وقد راعته حركة الجنود . ولماذا تدعونني خائنا

— لانك اقسمت بالقرآن

— اقسمت بان اسلمكم وردة .. وها هي الان بين ايديكم

فاشار غوران بيده الى فولافوان ورفاقه وللحال نكسوا اسلحتهم وكان منصو رينظر الى وردة والدموع تتحدر من مآقيه . وكان الضباط واقفين حول المحفة حاسري الرؤوس والجنود رافعين لاسلحة اكراما لتلك الراحلة العزيزة وجميعهم يبكون تلك الفتاة اللطيفة . وقال ماتوريل لغوران . اذا لم يبك رايموند خشيت ان يختل شعوره . ومد بارسفال يده الى وجه وردة فرفع عنه النقاب وازاح الرداء الذي كان على صدرها فشعر بجوهرة لا تزال الحرارة منتشرة عليها واراد القبض عليها ولكنه ما عتم ان عرف انها كانت مقبض خنجر اغمده مراد في قلب وردة ... فاخرجه واراد اغماده في صدره ولكن ماتوريل بادر اليه بسرعة وانتزع منه تلك المدية . فانطرح بارسفال على جثة

حبيبته وجعل يبكي منتحبا ...

فقال الطبيب لقد نجا والحمد لله من خطر الجنون

وبينا هم على تلك الحال سمعوا صوت صور آتيا من ناحية البيضاء ولم يك غير القليل حتى اقبل عليهم فرسان يتقدمهم بونابرت فصاح غوران قائلا. لقد جاء بونابرت

فعند سماع رايموند هـذا الاسم رفع رأسه وكانت العبرات تهمي على خديه فتجلى له حب المجد والموت ورأى في المستقبل حروبـا هائلـة وفتوحات مجيدة فختم تلك المأساة بقبلة حارة على شفتي تلك الفتاة التي كان يحبها محبة ما وراءها من مزيـد ثم اندفع كالسهم المارق لاستقبال ذلك القائد العظيم الذي كان موشكا ان يقوده الى ساحات المجد والفخار ... وقـال ماتوريل لمراد الذي كان واقفا جامدا انا نعيد هذه المرأة الى قاتلها

فمد منصور يده الى ماتوريـل شاكرا له تلك المكرمة ولافظا اسم تلك التي كان مزمعا ان يدفنها هو بذاته

وقال غوران . اتريدون ان تبقوا هذا الجرم بغير عقاب

ــ ان اشد عقاب يمكننا ان ننزله فيه هو استبقاءوه بعدها وانا ادري انه لا يلقي شيئا في هذه الدنيـا يلطف عذاباته

وســار الفرنساويون عـلى اثر بارسفال لا ينظرون الى ما وراءهم .

وكان الاعرابي محمد عند زاوية البرج على مسافة عشرين قدما والمملوك الذي لم تكن عيناه تفارقان ضحيته وقد صوب بندقيته على قاتل عمر ووردة.

انتهت